الحرية عند الرواقيين

د . وداد أبو النجا عجيزة(*)

مقدمة

يدور هذا البحث حول " حرية الإنسان عند الرواقية " - وهو موضوع شائك، اختلف فيه الفلاسفة والشراح والمؤرخون في العصور القديمة ولا يزالون مختلفين في الفكر الحديث والمعاصر. وربما كان السبب الرئيسي لهذه الإشكالية ، وصعوبة الحسم فيها ، يعود إلى مادية الرواقيين وتفسيرهم المادي لجميع ظواهر الكون فإذا " كان كل ما هو موجود مادة " وإذا كانت المادة تخضع لقوانين حتمية صارمة بقدر ما تخضع لقانون العلة والمعلول فإن ذلك يعني أن هناك " حتمية كسمولوجية " وهو ما بدأنا به هذا البحث بعد التمهيد مباشرة لكن السؤال : هل تمتد هذه الحتمية إلى الإنسان أيضاً بحيث نقول أنه مجبر في سلوكه ، فليس ثمة حرية إنسانية أيضاً ، كل شيء حتمي في هذا الكون ، أم أننا لابد أن نترك وسط هذه الحتمية هامشاً رفيعاً لحرية الإنسان ؟! يبدو أننا مضطرون لذلك " على ما في التعبير من مفارقة ، لأننا ما لم نتعلم ذلك فكيف نفسر إمكان قيام الأخلاق ، وأفعال الإنسان وسلوكه الأخلاقي ؟ أعني كيف نفسر المدح والقدح ، الاستحسان والاستهجان الثواب والعقاب ، اللوم والذم ... الخ ؟ بل كيف يمكن أن نقول للإنسان ألواناً من الوعظ في محاولة لتغيير سلوكه بناء عليها ..؟ بل كيف يمكن أن يكون لشعار الرواقية " عش على وفاق مع الطبيعة " أي معنى اللهم إلا إذا كان هناك أمل في تعديل سلوكه بحيث يتفق مع الطبيعة ؟ والأمل في تعديل السلوك مرهون بقدرة صاحبه وتربيته، مما جعله منسجماً متفقاً مع العقل أو مع الطبيعة العاقلة.

(*) كلية التربية، قسم الفلسفة، جامعة عين شمس.

وعلى ذلك فنحن نعتقد أن هناك مجالاً مستثنى من حتمية الطبيعة هو مجال الفعل البشري الذي هو " حر " فالإنسان حر الإرادة ، وحرية إرادته تمثل دائرة صغيرة وسط دائرة كبرى هي الحتمية الشاملة التي هي الحتمية الكسمولوجية التي منها الفعل البشري الحر..

ومن هنا سوف تنقسم أشياء العالم إلى دائرتين الأولى هي أفعال البشر وتصرفاتهم وهي مِلك لهم وتلك هي دائرة الحرية ، والثانية هي ظواهر الطبيعة بشكل عام، وتلك هي مجال الحتمية الطبيعية والعلية الكاملة والترابط الصارم بين الظواهر.

وعلى الرغم من أنني حر الإرادة في سلوكي وأفعالي فإن هذا لا يمنع من وجود مناطق داخل جسدي نفسه تخضع للحتمية الكسمولوجية وهي جوانبي البيولوجية فعملية الهضم ، ودقات القلب ، والتنفس .. الخ . ليست أفعالا بشرية تخضع لإرادتي الحرة ، وإنما هي أفعال أو قل ظواهر عضوية لا دخل لي في حدوثها . أما الفعل البشري الحقيقي وهو أساساً فعل أخلاقي – فهو الذي يخضع لسيطرتي ولهذا أثاب أو أُعاقب عنه . وهو الذي يخضع للحكم الأخلاقي فيستحسنه بعض الناس، ويستهجنه بعضهم الآخر.

ولكي نبرهن على فكرتنا التي تذهب إلى وجود حرية بشرية عند الرواقية فقد اخترنا – بعد الحديث عن الحتمية الكسمولوجية – مثلين أو نموذجين من فلاسفة الرواقية أحدهما هو " كريسبوس " من الرواقية المبكرة ، والآخر هو"ابيكتيتوس " من الرواقية المتأخرة – وقد بينا كيف أنهما معاً فيلسوفان من أنصار الحرية الإنسانية وكيف اهتما أولاً بمجال الأخلاق متأسياً بضرورة وجود الحرية عند الإنسان في هذا المجال . كما أنهما من ناحية أخرى ذهبا إلى قسمة الأشياء إلى نوعين النوع الأول يخضع لسيطرتنا وقدرتنا ، والنوع الثاني لا سيطرة ولا قدرة لنا عليه . وأحياناً تقال الفكرة بتعبير آخر هو " ما يُنسب إلينا " أي ما هو من صنعنا فيدخل ضمن مسئوليتنا في حين أن ما لا يُنسب إلينا فلا هو من صنعنا ولا هو يقع تحت مسئوليتنا وعلى رأس

هذه المجموعة من السلوك سلوك الظواهر الطبيعية، فكيف يمكن أن أكون مسئولاً عن هبوب الرياح ، أو سقوط المطر أو جريان الماء ... أو شروق الشمس وغروبها ..؟! لكني قد أتدخل أحياناً في هذه الظواهر فأعطل سيرها أو أوجهها أو استخدمها استخداماً سيئاً فقد أحضر ماءً وأجعل الماء يغلي عندما تصل درجة حرارته ١٠٠ ثم أقوم بصبه على جسد فلان عامداً متعمداً ، أو قد آت بقطعة من الحديد وأضعها في نار شديدة وأنظر إليها لأجد أنها من طبيعتها أن تتمدد بالحرارة ، ثم أكوي بها بدن فلان .

فها هنا ظاهرتان إحداهما طبيعية والأخرى بشرية ، الأولى حتمية والثانية فعل حر وقد يكون خيرا أو شرا ، والأمثلة التي ضربناها استخدامات سيئة لظواهر الطبيعة. وهذا الاستخدام السيء لقوانين الطبيعة وعللها هو استخدامي أنا والنتيجة – هي في الحالتين لا أخلاقية هي مسئوليتي أنا .. والسكين التي تخضع لقوانين الطبيعة وعللها قد استخدمها استخداماً حسناً، عندما أقوم بإجراء عملية جراحية لإزالة ورم من جسم إنسان ما .. هذا إذا كُنت طبيباً جراحاً . وقد ارتكب بها جريمة فأقتل إنساناً ما ... وقد يكون سلوك السكين ناتج من طبيعتها الخاصة التي تخضع لقوانين الطبيعة وعللها الحتمية ، لكن " استخدامها " هو فعل بشري حر ، يمكن أن يخضع للثواب والعقاب ، أو الإستحسان والإستهجان .

ويتضح من هذا المثال البسيط أن الحتمية الكسمولوجية لا تتعارض مع حرية الفعل البشري ، ذلك لأن سلوك الطبيعة ليس سلوكاً أخلاقياً في حين أن سلوك الإنسان كذلك ، ومن ثم فليس هناك ما يمنع أن يكون الأول حتمياً والثاني حراً .

وفي النهاية فقد أردنا أن نسوق نماذج مما يقوله فلاسفة الرواق فقمنا بترجمة بعض النصوص لواحد من أعظم الرواقيين هو " أبيكتيتوس " . وقد ترجمت لأول مرة في اللغة العربية ، حسب ما نعلم ، مجموعتين الأولى مجموعة شذرات" أبيكتيتوس "، وعددها ست وثلاثين شذرة، وقد ترجمها إلى اللغة الإنجليزية ب . إ . ماثيسون

P.E.Matheson وقد نشرها ويتني ج . أوتس Whitney J . Oates في مجلد ضخم بعنوان " فلاسفة الرواقية والأبيقورية : النصوص المتبقية كاملة :

" The Stoic and Epicurean Philosophers : The complete Extant Writings " Modern Library N.Y. 1957 .

أما المجموعة الثانية : فهي نصوص لأبيكتيتوس أيضاً بعنوان " مجمل أبيكتيتوس " The Manuel Of Epictetus من نفس المجلد السابق ص ٤٦٨

وما بعدها . وقد قمنا بمراجعة الترجمة الإنجليزية على الترجمة الفرنسية المنشورة تحت عنوان :

الرواقيون / نصوص مختارة " التي نشرتها دار الجامعات في باريس عام ١٩٥٧ ص١١٤ .

" Les Stoiciens : Textes Choisis " Par : Jean Brun , Presses Universitaises De France Pairs , 1957 , p . 114 .

وقد أردنا بهذه النصوص أن تكون عوناً لكل مَنْ أراد أن يبحث في هذا الفيلسوف الرواقي العظيم الذي كان يقول عن نفسه : " أنا ، أبيكتيتوس ، كنت عبداً أعرج فقيراً عزيزاً عند الخالدين ..! "

ندعو الله العلّي القدير أن نكون قد وفقنا في هذا البحث ، وفي غيره من البحوث إنه سميع مجيب الدعوات .

أولاً : - تمهيد في صعوبة الدراسة

ليست دراسة الفلسفة الرواقية أمراً سهلاً وميسورا ً بل يكتنفه الكثير من الصعوبات والعقبات نسوق بعضها على النحو التالي : -

١ – من الصعوبات الأساسية التي تواجه الباحث في دراسته للفلسفة الرواقية قلّة النصوص المتبقية من مؤلفات فلاسفة هذه المدرسة على مدار التاريخ . " ذلك لأن الرواقية ليست مذهباً رُسمت حدوده مرة واحدة ، فيبقى كما هو دون تغيير، كما

كان شأن الأبيقورية . "[1] وإنما هى فلسفة تطورت على مدار حقب كثيرة على نحو ما سنعرف بعد قليل .

٢ – يُضاف إلى قلة النصوص وأحياناً ندرتها . أن النصوص المتبقية مليئة بالثغرات والمثالب ففيها على سبيل المثال : –

أ – كثرة من النصوص تدور حول نقاط واضحة ثم تعيد تكرارها .

ب – بعض هذه النصوص المتبقية غامض ، وأحياناً تكون مشوهة أو مبتورة[2] .

جـ – هناك نصوص لا بأس بها لبعض الفلاسفة من أمثال أبيكتيتوس مثلاً، لكن علينا أن نضع في اعتبارنا ملحوظة هامة هي أن ابيكتيتوس – مثل سقراط – لم يكتب شيئاً ، وأن النصوص الموجودة جمعها تلميذه أريان Arrian [3] ونشرها تحت عنوان " محادثات ابيكتيتوس ".[4] Arrian Discourses Of Epictetus .

وقد ترجمها إلى الإنجليزية في أربعة كتب ب . إ . ماثيسون P . E . Matheson كما ترجم التصدير الذي كتبه أريان على شكل رسالة إلى لوسيوس Lucius .[5]

---

(١) د . عثمان أمين " الفلسفة الرواقية " مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثانية عام ١٩٥٩ ص ١٦ .

(٢) الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الثاني (القسم الأول) ، رئيس التحرير ، د . معن زيادة ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، عام ١٩٨٨، ص ٦٣٧ .

(3) W . T. Jones . " The Classical Mind : A History of Western philosophy " Harcount , U.S.A. 1962 , P . 247 .

(٤) نُشرت كاملة في كتاب : –

(5) The Stoic and Epicuream philosopers : The Complete Extant Writings , ed . by Whitney J . Oates, A Modern Library Giant , N . Y . 1957. P . 223 FF .

جـ - اشتهر عن فلاسفة الرواق إهمال الجمال الأدبي في التأليف : فقد أحمع القدماء على الشكوى من مؤلفات كريسبوس من ركاكة الأسلوب ، وجفاف عبارته، وما اختلط فيها من حشو وغموض : فكثيراً ما كان يقطع سياق الكلام في كتبه بما يورد من استطراد واشتقاقات ألفاظ ، واستشهادات من شعر الشعراء . (١)

د - سبب آخر في صعوبة دراسة الفلسفة الرواقية هو أن تاريخها يمتد لأكثر من خمسة قرون بكل ما تحمله هذه الفترة الطويلة من تغيرات سياسية ، وتقلبات ثقافية تلقي بظلالها على الفلسفة فما يميز الرواقية عن غيرها هو طول حياتها مع دوام تطورها على أيدي أنصارها العديدين . (٢) ونستطيع أن نقدّر حجم التغيرات التي طرأت عليها إذا عرفنا أن الرواقية عاشت ما يسمى بالفترة اليونانية القديمة (أو الهيلينية Hellenism) (٣) . ثم الفترة الهيلنستية Hellenisticism بما اشتملت عليه من تغيرات ثقافية هائلة نتيجة الجمع بين ثقافة الشرق القديم والثقافة اليونانية التي حملها الإسكندر إلى الشرق في غزواته، (٤) ومن هنا كانت الرواقية - فيما يقول ول ديوارنت- " أوسع فلسفات العالم القديم انتشاراً وأعظمها أثراً... " (٥)

---

(١) الموسوعة الفلسفية العربية ، بإشراف د . معن زيادة . ص ٦٣٧ (مرجع سابق)

(٢) د . عثمان أمين ، المرجع السابق ص ١٦ .

(٣) لُقِّب اليونانيون بالهيلينيين نسبة إلى الإله هيلين Hellene حفيد الإله برومثيوس . فقد اعتقدوا أن هذا الإله هو الجد الأول لجميع اليونانيين ، ومن ثم فقد تسموا باسمه ، وأصبحت الهيلينية تعني القومية اليونانية أو الأمة اليونانية .

(٤) لهذا السبب لم يستخدم مصطلح العصر الهيلنستي Hellenisticism على الإطلاق إلا بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق . م وحتى الفتح الروماني . ويعّبر عن الثقافة المشتركة بين جميع بلدان البحر الأبيض امتداداً من مصر وسوريا ووصولاً إلى روما وأسبانيا .. الخ راجع مثلاً : اميل برهييه : " تاريخ الفلسفة " الجزء الثاني (الفلسفة الهيلنستية والرومانية) ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٨٢م .

(٥) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد الثاني ، ترجمة محمد بدران ، ص ١٧٧ وما بعدها .

ونظراً لهذا التاريخ الطويل الذي عاشه المذهب الرواقي فقد قسَّم المؤرخون تاريخ الرواقية إلى ثلاث مراحل : -

أ - الرواقية المبكرة أو القديمة أو اليونانية والتي تبدأ من مؤسسها زينون الكتيومي في أثينا عام ٣٠٠ ق. م وتمتد ما يقرب من قرن كامل (حوالي ٢٠٤ ق . م).

ب - الرواقية المتوسطة في القرنين الثاني والثالث ق .م حيث مالت ميلاً واضحاً إلى المذهب الانتقائي Selectionism فأدخل فلاسفتها عناصر أفلاطونية وأرسطية إلى المذهب ، وتخلوا عن الرواقية المحافظة . (١)

جـ - الرواقية المتأخرة ، وهي التي تمسكت بالمباديء الأخلاقية والعلمية للمدرسة كما اصطبغت بصبغة دينية واضحة ، وهي تمتد من القرن الأول بعد الميلاد وتظل قائمة حتى الوقت الذي أُغلقت فيه المدارس اليونانية عام ٥٢٩ بعد الميلاد . (٢)

٣ - لم تكن الرواقية ، إذن ، تعبيراً عن فلسفة فيلسوف واحد ، بل مجموعة كبيرة من الفلاسفة على مدى عصور طويلة، يقول أحد الباحثين : " ليست الرواقية مجرد نظرية علمية ... من عمل فيلسوف واحد مثل مؤسسها الأول زينون ، بل هي تمثل أفكار مجموعة من الفلاسفة من مصادر شتى ، ومن هنا جاء طابعها العملي التلفيقي الأمر الذي تعذر معه إمكان عرض آرائها بطريقة مذهبية منهجية .. " (٣) ، فالفترة الأولى لمع فيها ثلاثة من كبار الفلاسفة :

---

(١) قارن فردريك كوبلستون " تاريخ الفلسفة " المجلد الأول (اليونان والرومان) ترجمة د . إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م .

(٢) د . عثمان أمين ، مرجع سابق ص ٣٤ .

(٣) د . محمد علي أبو ريان ، " تاريخ الفكر الفلسفي " الجزء الثاني (أرسطو والمدارس المتأخرة) دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية عام ١٩٨٠ ، ص ٢٧٥ ويقول د . عثمان أمين " ليست الرواقية من صنع رجل واحد وإنما هي جملة نظرات متعددة الينابيع وقد تطورت على مر الزمان ، واصطبغ الكثير من أجزائها بألوان مختلفة (الفلسفة الرواقية ص ٣٣).

أ – المؤسس الأول للمذهب زينون المولود في مدينة كيتوم Citium من أعمال قبرص ، والذي جاء إلى أثينا في الفترة (٣١٥ – ٣٣٦) ق . م .

ب – خليفته كليانتس Cleanthes المولود في مدينة أسوس Assos من (٣٣١– ٣٣٠ ق . م) .

جـ – كريسبوس Chrysippus المولود في مدينة صول Soloi في جزيرة قبرص عام ٢٨١ ق . م – الذي يلقبونه بالمؤسس الثاني للمدرسة الرواقية . والذي قال عنه ديوجنس اللايرتي" لو لم يوجد كريسبوس ما وجدت الرواقية.."(١) فهو واضع المذهب الرواقي المدافع عنه ضد جميع المعارضين .(٢) ثم كان لهؤلاء الأعلام كثرة كثيرة من التلاميذ ، فالمؤسس الأول زينون – كان من تلاميذه أرسطون Ariston المولود في خيوس Chios ، وهيريللوس Herillus القرطاجني، وديونسيوس Dionysius الهيراكلي ، وبيرسون Persion من كيتوم Citum (موطن زينون) ، كما كان سفيروس Sphairus تلميذاً لـ كليانتس Cleanthes .

أما كريسبوس Chrysippus فقد خلفه تلميذان زينون Zenon من طارسوس Tarsus وديوجنس Diogenes السلوقي Seleucia ثم خلف ديوجنس أنتيباتر Antipater الطرسوسي.(٣) وهؤلاء الفلاسفة جميعاً ينتمون إلى حقبة واحدة من الحقب الثلاث التي ينقسم إليها تاريخ المدرسة الرواقية ، فما بالك لو سرنا نستعرض الحقبتين الثانية والثالثة.

---

(1) Diogenes . Laertius : lives of Eminent Philosophers ,Eng.Trans . by R . D . Hicks . vol .. Loeb Classical library . 1972 .

(٢) د . أميرة حلمي مطر " الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها " دار المعارف بمصر، عام ١٩٨٨ ص ٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٣) في كتاب " الفلسفة الرواقية " للدكتور عثمان أمين يذكر اسم " أنطيفاطر " الرواقي ذو القلم الصارخ " الذي اشتهر بمحاولاته في الرد على فلاسفة الأكاديمية – مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية عام ١٩٥٩ ص ٦٩ .

٤ – هذا التاريخ الطويل الذي مّرت به الرواقية ، والعدد الضخم من الفلاسفة الذي احتوى عليه المذهب ، والثقافات المتغيرة التي عاش فيها أهل الرواق ، أدى إلى تعديل كثير من الأفكار والآراء والمباديء التي نادى بها الأنصار والأتباع في كل عصر ، يقول برتراند رسل : " كانت الرواقية معاصرة للأبيقورية من حيث النشأة ، لكنها كانت أطول من زميلتها تاريخاً ، وأقل منها ثباتاً على المبدأ، فتعاليم مؤسسها زينون في الشطر الأول من القرن الثالث قبل الميلاد لم تكن أبداً هي التعاليم التي أخذ بها مرقص أورليوس في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد " (١) .

وعلى الرغم من جميع هذه الصعوبات فنحن مطالبون بالحديث عما يسمى " بالفلسفة الرواقية " بصفة عامة لكننا في حديثنا العام عن المذهب سوف نقتصر على الجوانب التي يكاد يكون هناك اتفاق عام بصددها . فإذا كان المؤرخون يقسمون المذاهب ثلاثة أقسام هي : المنطق – الطبيعيات – ثم الأخلاق فإن القسم الأول على أهميته – لا يعنينا كثيراً حيث أن موضوعنا ينصب أساساً على " الحرية البشرية " التي لا ترتبط بالمنطق من قريب أو بعيد ، ولكنها ترتبط بالطبع ، بالحتمية الكسمولوجية التي يتسع نطاقها عند بعض الباحثين بحيث يشمل مجال الفعل البشري ، وهكذا يتم إلغاء الحرية تماماً على اعتبار أن الإنسان ظاهرة من ظواهر الطبيعة التي يسودها الحتمية الصارمة! كما يعنينا بالدرجة الأولى القسم الثالث الذي يعالج موضوع الأخلاق حيث ينصب على السلوك البشري وما يحمله من مسئولية ، وكذلك الفعل الإنساني ومدى ما فيه من حرية أو جبرية .

وسوف نتوقف في هذا السياق عند نموذجين من أعظم فلاسفة الرواقية هما : –

- كريسبوس .. Chrysippus من الرواقية المبكرة .

---

(١) برتراند رسل : " تاريخ الفلسفة الغربية " الجزء الأول ، ترجمة د. زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، عام ١٩٥٤ ، ص ٤٠٠ .

- وابيكتيتوس .. Epictetus من الرواقية المتأخرة .

لكن علينا قبل ذلك كله أن نعرض لما يسمى " بالحتمية الكسمولوجية عند الرواقيين" .

ثانياً : " الحتمية الكسمولوجية "

١- الرواقية والطبيعة :

موضوع دراستنا هو " حرية الإنسان عند الرواقية " لكنه موضوع مازال مثار جدل طويل حتى بين الباحثين المحدثين ، بعد أن كان مثار خلاف حاد بين الشُراح قديماً . (١) وربما كانت أسباب الخلاف نابعة أساساً من مصدرين لا ثالث لهما الأول : تصور المدرسة الرواقية للطبيعة وما فيها من قوانين حتمية ، وهذا التصور يسمى أحياناً بالحتمية الكسمولوجية . والثاني : اختلاف درجة الاهتمام بالطبيعة بين أطوار الرواقية ، فلا شك أن الرواقية في طورها الأول كان اهتمامها الأساسي ينصب على الطبيعة في حين تعدل مركز الاهتمام إلى الأخلاق والسلوك العملي في الرواقية المتأخرة: "فقد اتجه اهتمام الفلسفة عند زينون وكليانتس (الرواقية المبكرة) إلى العناية بالطبيعة أكثر من الأخلاق . أما الطور الثاني (الرواقية المتأخرة) فقد طغت فيه النزعة العملية ... " (٢) وفي جميع الحالات فإنَ منْ يدرس حرية الإنسان عند الرواقية لابد من أن يدرس الطبيعة عند هذه المدرسة بسبب الآراء التي تجعل الإنسان ظاهرة طبيعية عند الرواقية يسري عليها نفس القانون الذي يحكم الطبيعة .

---

(1) Charlotte Stough " Stoic Determinism and Moral Responsibility "An Essay in the stoics " ed . by John M . Rist , p. 903 .

(٢) د . عبد الرحمن بدوي " خريف الفكر اليوناني " مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية عام ١٩٤٩ ص ٩٣ .

٢- التفسير المادي :

تنقسم الفلسفة الرواقية عادة ، ثلاثة أقسام هي : -

المنطق - والطبيعيات - والأخلاق ، ثم يعود المنطق فينقسم قسمين هما الديالكتيك (الجدل) والخطابة .

لكن المنطق لا يعنينا الآن كثيراً ، فالأهم منه بالنسبة لدراستنا هو القسم الثاني في الفلسفة الرواقية ، وأعني به " الطبيعيات " فهم ينظرون إلى الطبيعة نظرة مادية خالصة فكل شيء في الكون مادي " فالقضية الأساسية في الفيزياء الرواقية هي أنه ما من شيء غير مادي له وجود . وتتفق هذه المادية مع النزعة الحسية لمذهبهم في المعرفة.."(١) ولو أن رسل ينبهنا إلى أن هذه الصبغة المادية للطبيعة كانت تتسم بها الرواقية المبكرة (زينون وكليانتس) التي أخذت بوجهة نظر هيراقليطس في اعتبار النار أساساً للوجود ، كما تأثرت بشدة بفلسفة الطبيعيين الأول بصفة عامة ، في حين أن الرواقية المتأخرة مالت إلى التخفيف من هذه المادية الحادة فتابعت أفلاطون في اعتبار الروح غير مادية(٢) .

ولقد كانت هناك تفسيرات مختلفة للأسباب التي أدت بأهل الرواق إلى تفسير الطبيعة تفسيراً مادياً خالصاً على هذا النحو فذهب بعض المفسرين إلى القول بأنهم أخذوا عن أفلاطون قوله إن الموجود الحقيقي هو الذي يؤثر ويتأثر ، وأن الجسم المادي هو وحده الذي يقبل التأثير والتأثر فذهبوا إلى أن الموجودات الطبيعية كلها أجسام ابتداءً من أعلاها الموجود الإلهي إلى أدناها أشياء العالم الخارجي فهي كلها مادة

---

(1) W . T . Stace : A Critical History of Greek Philosophy,London Macmillan co . LTD , 1962 , P . 346 .

وانظر أيضاً : ولتر ستيس : " تاريخ الفلسفة اليونانية " ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٨٤. ص ٢٨٠ .

(٢) برتراند رسل " تاريخ الفلسفة الغربية " ترجمة د . زكي نجيب محمود ص ٤٠٢ .

وينبغي تفسيرها تفسيراً مادياً خالصاً " بل إن صفات الأجسام وخواصها هي نفسها مادية وذلك مثل : اللون ، والطعم ، والرائحة ، ،والشكل ، والصوت فهي كلها أجسام مادية .. " . (١).

وذهب البعض الآخر إلى أن السبب الرئيسي في هذه المادية المتطرفة هو نظرية المعرفة ، فقد مالوا إلى القول بنزعة حسية خالصة في ميدان الابستمولوجيا، فإذا بدأنا بقولنا أن الحس هو الذي يدرك وهو الذي يعرف لكانت النتيجة أن العالم الذي نتعامل معه لابد أن يكون مادياً ، لأن الحس لا يدرك إلا ما هو مادي ، ومن هنا كان العالم عندهم مجموعة من الظواهر المادية الخالصة . إلا أن فريقاً آخر ذهب إلى أن النزعة الحسية في المعرفة لا تكفي لتفسير التصور المادي للكون ، وربما كان العكس هو الصحيح أو أنهم حسيون في نظرية المعرفة أي أنهم ماديون في مجال الأنطولوجيا أو الوجود . وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نقول إن الرواقيين قد تأثروا بالمذاهب الطبيعية المبكرة خاصة مذهب هيراقليطس لاسيما أنهم يذكرونه بالاسم من ناحية ، كما أنهم من ناحية أخرى أخذوا عنه فكرة " النار" كما سبق ان ذكرنا منذ قليل.

٣- نتائج :

يترتب على هذه المادية الشاملة عدة نتائج هامة منها : -

أ – أنه لا يوجد خلاف على الإطلاق في أن العالم ملاء تماماً يسري فيه " اللوجوس : Logos " ولقد أدت فكرة اللوجوس الذي يسري في الكون كله عند الرواقيين إلى تصور الكون باعتباره كلاً متصلاً Continuum كل أجزائه في تفاعل ديناميكي . وفكرة الدينامية هذه في مفهوم الاتصال تجعل من النظرية الرواقية واحدة من الإسهامات العظيمة الأصيلة في تاريخ المذاهب الفيزيقية والتي تتجاوز بمقتضاها حدود الفكر الفيزيقي الخالص .. " (٢)

---

(١) د . عثمان أمين " الفلسفة الرواقية " ص ١٥٤ .

(1) Sambursky : Physics of Stoics P . 1x Routledge and kegan Paul London , 1959 نقلاً عن كتاب " في فلسفة الطبيعة عند الرواقيين " للدكتور مصطفى لبيب عبد الغني دار=

ب – والنتيجة الثانية التي تترتب على تصور الرواقيين المادي للكون هي إنكار " الصدفة" فلا شيء يحدث مصادفة أو بطريقة عفوية ، بل كل شيء نتيجة لأحداث سابقة كما أنه يمهد لأحداث لاحقة ، وذلك يؤدي بنا إلى النتيجة الثالثة الهامة وهي :

جـ – ظواهر الكون تحكمها العلّية عن طريق ترابط الأحداث بعضها ببعض وهو ترابط حتمي بين العلة والمعلول ، ومن ثم فقد نظر الرواقيون إلى قانون العلّية على أنه القانون الطبيعي الساري بشكل حتمي وعام في الكون كله ، بل اعتبروا العلل أجساماً مادية ترتبط – في سلسلة متصلة اتصالاً قوياً – كل الأشياء معاً " فكل الأحداث مترابطة ترابطاً علّياً في سلسلة العلل التي تضم كل شيء بين جوانبها حتى لا يحدث شيء إلا وكان مقدراً ومحدداً بعلل منظمة سلفاً . فكان الرواقيون بذلك أول من ربط كل حدث بنوع من الضرورة (الأطراد) الدائم الأبدي الذي لا استثناء فيه . ولما كان كل حدث له في نظرهم علة لا محالة فسوف يتكرر وقوع نفس الحدث لا محالة كلما تكرر ظهور علته حتماً .(١)

غير أن الرواقيين قاموا بتحليل أكثر دقة ونفاذاً لعلاقة العلة والمعلول تحليلاً يقترب من فكرة القانون الطبيعي ووسعوا نطاقها لتصبح نموذجاً حتميا عاماً .(٢)

د – الكون Cosmos (٣) عند فلاسفة الرواق هو كل دينامي متصل ، وهم يتصورونه على أنه متحد يرتبط فيه كل شيء بكل شيء آخر " من خلال ألوف مؤلفة

=الثقافة للنشر والتوزيع ص ٢٨ ، وانظر أيضاً " دراسات فلسفية مهداة إلى روح " عثمان أمين " دار الثقافة ١٩٧٩ ص ٤٣

(١) د . محمود مراد " الحرية في الفلسفة اليونانية " ص ١١١ .

(٢) د . مصطفى لبيب عبد الغني " في فلسفة الطبيعة عند الرواقيين ص ٤٣ " وانظر للمؤلف نفسه : " طبيعيات الرواقيين " في كتاب " دراسات فلسفية مهداة إلى روح " عثمان أمين " دار الثقافة عام ١٩٧٩ ص ٥٢ .

(٣) الواقع أن كلمة الكون نفسها Cosmos في اللغة اليونانية تعني حرفياً " الكون المنظم " أو نظام العالم انظر مثلاً Dictionary Of Philosophy, ed . by T. Mautner , Penguin Lant Cosmbs P . 114

من علاقات العلّة والمعلول . وهم يذهبون إلى أن هذه الترابطات العلّية تتغلغل وتنتشر بلا استثناء في الطبيعة على جميع المستويات من أدناها : الطبيعة الجامدة أو غير العضوية إلى أعلاها في أشكال الحياة العليا (١) وبعبارة الإسكندر الأفروديسي : " لا شيء يحدث في الكون أو يوجد بغير علة ، لأنه لا شيء فيه حر أو منفصل عن كل ما حدث من قبل ، إذ لو حدث ذلك فسوف يتحطم الكون Cosmos ويتناثر ولن يبق منه شيء ، كما أنه لن يكون فيه وحدة ، أو نظام واحد ، أو خطة ، إذا ما تصورنا أنه دخلته حركة بلا سبب ولا علّة ، ..... ومن حيث كثرة العلل فإنهم يقولون إنها متساوية فإنه إذا ما حدثت الظروف نفسها فإننا نحصل على نفس العلّة التي ترتبط بها ، ومن المستحيل أن يحدث شيء ما أحياناً ، ثم يحدث شيء آخر أحياناً أخرى .. " (٢) .

٤ - الحتمية الشاملة

ويتضح من هذا النص أن الإدراك الواضح للكون عند الرواقية يعتمد على تصورهم للحتمية الشاملة والصارمة التي تحكمه ظواهره . بحيث أنه يمكن فهم كل ظاهرة بالإشارة إلى العلل التي سبقتها والنتائج (أو المعلومات) التي تلحق بها أو تنتج عنها . والتشديد على أن الرواقية تضع هذه المعقولية في مثل هذا التخطيط الحتمي يظهر أكثر من فقرة عند شيشرون بحيث أنه يمكن أن نتخيل الإمكان النظري للتنبؤ بأحداث المستقبل من علل متقدمة .

وانظر أيضاً " معجم أكسفورد الفلسفي " حيث يقول : كلمة كوزموس Cosmos تعني النظام أو " العالم ككل منظوراً إليه على أنه منظم أو يحكمه القانون ، سواء أكان هذا القانون يعني : القدر أو العدالة أو الأمر الإلهي أو الضرورة العقلية .. "

- Oxford Dictionary of Philosophy ed . by Simon Blackburn , 1996 art Cosmos P . 85 .

(1) Charlotte Stough : Stoic Determinism and Moral Responsibility " An Essay in The Stoics " . ed . by John M . Rist University of California Press , U . S . A 1978 . P . 203 .

(2) Ibid , P . 204 مما يعني أن نفس العلة تحدث نفس المعلول بصفة مستمرة إذا كانت الظروف التي تحدث فيها واحدة .

" فلو أن هناك إنساناً يستطيع عقله أن يعرف ويميز الحلقات التي تربط كل علة بغيرها من العلل – فمن المؤكد أنه لن يخطيء أبداً في أي تنبؤ يقوم به . ذلك لأن من يعرف علل الأحداث المقبلة فإنه يعرف بالضرورة ما الذي سيكون عليه كل حدث في المستقبل . لكن لما كانت هذه المعرفة لن تكون ممكنة إلا بالنسبة لله وحده ، فقد تركت للإنسان أن يتنبأ بالمستقبل عن طريق بعض العلامات التي يستنتج منها ما يعقبها .. ".

ومن ثم فالكون المنظَم هو " تخطيط " عقلي (١) أو خطة عقلية Rational Plan ولقد سارت الرواقية بعيداً في هذا الطريق حتى أنها وحدّت هذه الخطة مع اللوجوس Logos الإلهي ذاته ، مع التشديد على الترابط بين العقل وبين التتابع الذي لا ينقطع للعلل والمعلولات ، أو بين الأسباب ونتائجها ، ويساعدنا ذلك في فهم الموقف المتشدد الذي تبنته الرواقية تجاه القدر Fate ، فالقدر عندهم ليس سوى " العلل المترابطة المنظمة " أو هو النظام العقلي الإلهي للكون الذي يحكم أحداث الماضي والحاضر والمستقبل . وتشديد الرواقية على أن جميع ظواهر الكون وأحداثه مقدَّرة لا يعني شيئاً آخر سوى التأكيد على أن الكون Cosmos هو نظام يمكن فهمه من الأجزاء المترابطة التي يعتمد بعضها على بعض ، فكل الأحداث بما في ذلك أحداث البشر ترتبط ارتباطاً سببياً أو علياً مع غيرها من الأحداث التي تسبقها أو التي تليها والتي يمكن التنبؤ بها من حيث المبدأ من ظروف مواتية في الطبيعة ،ومن ثم فلا يمكن أن يقع أي حدث جزئي حتى ولا أقل الأحداث إلا طبقاً للطبيعة الكلية وقانونها العام Logos . ونحن هنا نُعلي من كلية القدر وشموله ، وهذا يساوي قولنا أن كل شيء في الكون بدءاً من أقل الأجزاء إنما يقع بالضرورة بطريقة تستدعي تفسيراً عقلياً .

---

(١) ويشير هذا المصطلح إلى البعد الغائي في الفكر الرواقي ، وإن كان الطابع العقلي Rational للكون الرواقي لا يعني بالضرورة الفرض الإلهي . إذ يمكن أن يقال إن العقل متغلغل في الطبيعة بمعنى أن الكون Cosmos ليس خليطاً أعمى Chaos من الأحداث بل شبكة مفهومه من العلل انظر : Stough Charlotte في مقالها Stoic Determinism and Moral Responsibility في كتاب " الرواقية The Stoics السالف الذكر ص ٢٢٨ .

وفي الوقت الذي ذهب فيه آخرون – كالأبيقورية على وجه التحديد والمشاءون بصفة عامة – إلى السماح بوجود الصدفة والعفوية في الطبيعة – ذهبت الرواقية إلى وجود علل خفية ، كما ذهبت أيضاً إلى القول بأن وجود أحداث بغير علل يكاد يرادف القول بوجود شيء يخرج من لا شيء مع أن المبدأ السائد المعروف يقول أنه "يستحيل أن يخرج شيء من لا شيء" Ex Nihil Nihil fit "

وكل فرض من هذين الفرضين (الوجود بغير علة – والخروج من العدم) مستحيل كالآخر سواء بسواء ، وهذا التدليل قَبْلي apriori وهو شاهد رائع على عقلانية الرواقية وصرامتها وشكلها . (١)

وربما كان من الأهمية بمكان أن نعرف كيف طبقت الرواقية نظريتها في الحتمية على أعمال الطبيعة في جميع المستويات – فقد ميزوا بين نوعين من الفاعل العلّي Agency Causal يتعاونان على إظهار حدث طبيعي مُعيَّن هما :-

أ – العلل الخارجية التي تعمل في الجسم الذي ينسبون إليه أعمال القدر.

ب – طبيعة الجسم الذي يتأثر ، وهم ينظرون إليها على أنها علّة داخلية ، وهي تكشف عن أنها ترتبط بالضرورة.

فالحتمية الرواقية تتضمن القول بأن كل حدث يقع إنما هو نتيجة أحد هذين النوعين من العلل . كما تتضمن أن العالم عبارة عن شبكة من العلاقات والعلل ، وفي مثل هذا العالم لا يمكن أن يكون الفرد حراً ، ولا يمكن أن تكون هناك حرية حقيقية للإرادة في عالم تحكمه الضرورة ولا معنى فيه للقول بأننا قمنا بهذا الفعل أو ذاك . أو أن أفعالنا إرادية فأمثال هذه العبارات لا تعني سوى أننا نميل إلى ما نفعله ، إلا أن ما نفعله محكوم بعلل ، ومن ثم محكوم بالضرورة . هكذا استنتج ولتر ستيس W . T . Stace بعد أن عرض الطبيعيات الرواقية (٢).

---

(1) Charlotte Stough , ibid , P . 204 – 205 .

(2) W . T . Sace : A Critical History of Greek Philosophy . P 346 =

جـ - وذهب آخرون إلى أن المدرسة الرواقية تتفق مع الطبيعيين الأوائل في القول بالحتمية الطبيعية الصارمة : " إذ تقول كلتاهما بقانون الطبيعة الضروري الذي يحكم سير الوجود ، ولا يمكن لأحد أن يخترقه والفارق بينهما أن دراسات الطبيعيين الأوائل الحتمية هذه كانت منصبة في المقام الأول على المجال الكوني الواسع فحسب ، اذ لم ينتقل أحد إلى مجال الفعل البشري "(١) ويستمر هذا الباحث ليرى أن استثناء الفعل البشري من هذه الحتمية الصارمة " خلط لم تقع فيه الرواقية .. " وكأن القول بتميز" الإنسان بخاصية لا توجد في ظواهر الطبيعة خلط " وقع فيه الفلاسفة من أفلاطون إلى ديكارت وما بعده !

ويواصل الباحث حديثه الذي يرى فيه أن الحتمية أصبحت على أيدي الرواقية لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي عقيدة يؤمن بها المفكر في المباديء الأنطولوجية والابستمولوجية والأخلاقية على حد سواء ، فالقانون الإلهي يضبط كل صغيرة وكبيرة ويحدد موقعها ووظيفتها سواء في المجال الطبيعي أو السلوك البشري . (٢) غير أن هذه النظرة الحتمية الصارمة تثير مشكلات كثيرة لاسيما في ميدان الأخلاق يتركها الباحثون في الغالب بغير حل ..

ثالثاً : المسئولية الخلقية.

الواقع أننا إذا قلنا أن الرواقية تذهب إلى أن الطبيعة كلها بغير استثناء يسيطر عليها قانون عليّ شامل وصارم ، وأن الموجودات البشرية من هذه الزاوية- لا تختلف عن بقية موجودات الطبيعة فلابد أن نصطدم في هذه الحالة بالكثير من العقبات

=وانظر أيضاً : ولتر ستيس " تاريخ الفلسفة اليونانية " ترجمة مجاهد عبد المنعم ، دار الثقافة ، عام ١٩٥٤ ص ٢٨٢ .

(١) د . محمود مراد " الحرية الفلسفية اليونانية " دار الوفاء للطباعة والنشر ، الإسكندرية عام ١٩٩٩ ص ١٠٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٩ .

والصعوبات والمشكلات المتروكة بغير حل ، ولعل أخطر هذه المشكلات جميعاً المسئولية البشرية في ميدان الأخلاق ، فضلاً عن المشكلات الأخرى مثل إصدار الأحكام ، واتخاذ القرارات والقيام بعمليات الاختيار والإقدام على فعل دون غيره وما إلى ذلك .

الواقع أننا إذا ما قلنا أن جميع الأشياء – بما في ذلك أفعال البشر محتومة بقوانين حتمية صارمة ويوجهها القدر ، وأن مسار القدر لا يمكن تغييره ولا حتى تجنبه ، فإن أخطاء البشر في هذه الحالة ربما كل خطاياهم أيضاً لا ينبغي أن تكون محل لوم أو تأنيب، كذلك أفعالهم الخيّرة لا يمكن أن تكون موضع استحسان أو ثناء– بل لا يمكن بصفة عامة أن تُنسب أفعال إليهم أو إلى ميولهم ، بل تُنسب إلى دوافع لا يمكن لهم تجنبها . وهي دوافع يحركها القدر ويمليها عليهم !

وهكذا تبدو الحتمية الرواقية عند كثيرين لا يمكن أن تتفق مع القول بأن أشخاصاً معينين مسئولين عن أفعالهم ، ومن ثم فيبدو أيضاً أن هذه النظرية – أن صحّت – سوف تهدم أسس الأخلاق التي كانت الرواقية حريصة عليها غاية الحرص ! .

ومن هنا ذهب باحثون آخرون إلى أن الرواقية سعت ، دون أن تعرض نظريتها في الحتمية للخطر ، إلى عدم استبعاد استحقاق السلوك البشري للعقاب . وعلينا الآن أن ننظر في هذه المحاولة .

ربما كانت التفرقة الحاسمة ذات المغزى أكثر من غيرها التي وضعتها الرواقية وكان لها أثرها القوي في ميدان الأخلاق – هي تفرقتهم بين " الأشياء التي يمكن أن تُنسب إلينا والأشياء التي لا يمكن أن تُنسب إلينا " – وهي نفسها التفرقة التي سوف نصادفها عند أبيكتيتوس تحت عنوان " الأشياء التي تخضع لقدرتنا، " والأشياء التي ليست في قدرتنا " وهذه التفرقة بالغة الأهمية : أولاً : لأنها تميّز الإنسان في الحال عن موجودات الطبيعة الأخرى،ولأنها ثانياً : تفرق بين أحداث الطبيعة التي لا يمكن أن تُنسب إلينا وأفعال الإنسان التي يمكن نسبتها إليه . ولأنها

ثالثاً : تجعل الفضيلة والرذيلة من بين الأشياء التي يمكن أن تُنسب إلينا . كما أنها رابعاً تجعل من الممكن أن يكون هناك مدح وقدح ، وثناء وهجاء ، واستحسان واستهجان ... الخ للسلوك البشري .

وإذا كانت الرواقية تقول - في بعض الأحيان- " إن الشخصية الفاضلة لا يمكن أن ننتهك مبادئها الأخلاقية ، فمن المؤكد أن ذلك لا يعني أن الفرد لا يستطيع - لو أراد أن يفعل ذلك أي أن يسلك مسلكاً آخر - يتعارض مع مبادئه الأخلاقية ، فهو بالقطع يستطيع أن يفعل ذلك ، ففي استطاعة مثل هذا الشخص أن يختار السلوك السيء أو الشرير (السرقة مثلاً) ويترك السلوك الفاضل (الأمانة) - إذا أراد لكنه من النوع الذي لا يرغب في أمثال هذا اللون من الأفعال السيئة أو الشريرة - إذا كان اتجاهه نحو السرقة مستحيل ، فإن الاستحالة هنا أخلاقية لا علاقة لها بالحتمية أو القدر أو الضرورة، وإنما هي تتعلق بإرادته هو واختياره هو للسلوك الفاضل (الأمانة ، والشجاعة ، والعدل ، والصدق...الخ) فمن المستحيل عند بعض الأشخاص أن يسلكوا سلوكاً شريراً لأن لديهم - من داخلهم استهجاناً أخلاقياً عميقاً لأن يفعلوا ذلك . ولو أننا تساءلنا إذا ما كان هناك شخص ما يستطيع بماله من مشاعر أخلاقية قوية أن يكف عن استهجان الأفعال الشريرة، فإننا سوف نتساءل عما إذا كان هذا الشخص يمكن أن يمر بتغيير في مواقفه المناسبة . ما هي مضامين التحليل السابق وأثرها على الفلسفة الأخلاقية الرواقية؟ إن النتيجة الأولى لابد أن تكون هي أن الرواقية لا تستبعد المسئولية الخلقية وليس ثمة ما يجعلنا نقول أن الفاعل غير مسئول عن أفعاله ، بل على العكس فها هنا نجد الأشياء (أي الأفعال) التي يمكن أن تُنسب إلينا إذ من الواضح أن الرواقية تعني بكلمة إلينا نحن الموجودات البشرية ، مما يعني أي دراسة متأنية لهذا المفهوم.

إننا نعالج منطقة خاصة من الطبيعة - وهي ضئيلة للغاية إذا ما قورنت بالطبيعة بأسرها - وأعني بها منطقة الطبيعة البشرية ، والأحداث البشرية أو قل إنها

منطقة الفعل البشري . على أننا نترك جانباً منطقة واسعة جداً تخص الطبيعة غير الحية من ناحية ، وكذلك منطقة النباتات والحياة الحيوانية الأخرى من ناحية أخرى ، لكن لابد لنا أن ننتبه جيداً إلى أن لهذا المفهوم معنى خاصاً جداً لدى الرواقية ، إن فحص مجال الأشياء التي تُنسب إلينا في الفلسفة الرواقية تعني حصر اهتمامنا في نطاق الطبيعة البشرية والموجودات البشرية منظوراً إليها من زاوية الفاعل . وذلك يعني تركيز انتباهنا على ذلك البعد من الأحداث البشرية ،أعني ميدان السلوك الأخلاقي . وهكذا سوف يظهر في الحال – بناء على الفكرة الرواقية التي تقسم الأشياء إلى " ما يُنسب إلينا " ، " وما لا يُنسب إلينا " – سوف يظهر تقابل بين الفعل الذي هو عمل يقوم به شخص ما ، وبين الحدث المحض الذي يقع فحسب(وقد يقع لنا) أو قل – بصفة عامة – بين أحداث الطبيعة–وربما حدثت لنا – وبين أفعالنا نحن ، بين سقوط المطر ، وقد سقط علينا ، وبين الإحسان إلى فقير ، أو سرقة غني أو الشجاعة في إنقاذ غريق ، ولو صّح ذلك فإن مفهوم الأشياء التي تحدث لنا تعمل تماماً في سياق خطة الطبيعة الحتمية ولا يدخل الفعل البشري في هذا السياق ، وعلى هذا النحو يمكن أن تظهر المسئولية الخلقية والمعايير والقيم الأخلاقية المختلفة ويمكن أن تكون ذات معنى : كالمدح والقدح،والثواب والعقاب .. الخ . فأنا كفاعل أخلاقي ، أكون مسئولاً عن الأفعال التي أقوم بها فأستحق الثناء على الأفعال الخَيرة، والاستهجان على الأفعال الشريرة .

وطالما أن الرواقية تذهب إلى أن الفضيلة والرذيلة من الأمور التي يمكن أن تُنسب إلينا ، فإنه ينتج من ذلك أنها لابد أن تذهب أيضاً إلى أن تهرب شخص ما من المسئولية الأخلاقية في موقف معيّن . معناه أن الأفعال الشريفة يمكن أن تُنسب إلينا على سبيل الخطأ ، أي الفعل المزعوم (السرقة) ليس فعله (السارق) ربما لأن شخصاً آخر هو الذي قام به . أو ربما يقول أن ما فعله حقاً لا يقع ضمن دائرة الأشياء التي توصف بأنها تُنسب إليه ، أو ربما لأن ما حدث ليس فعلاً بشرياً على الإطلاق ،

وإنما هو نوع من الحظ العاثر أو الحدث المؤسف الذي وقع له . ولما كانت جميع هذه الاعتبارات تلعب دوراً هاماً في تحديد المسئولية الخلقية وإلقاء اللوم أو الثناء أو المدح والقدح والاستحسان والاستهجان على ألوان السلوك اليومية، فإن التمييز بين الأشياء التي يمكن أن تُنسب إلينا ، والأشياء التي لا يمكن أن تنسب إلينا – بالمعنى الذي ذكرناه فيما سبق – يعكس الاستبصارات ذاتها المتضمنة في المعيار العملي لتحديد الأشخاص المسئولين عن أفعالهم. (١)

رابعاً: خاتمة:

سوف نتحدث بعد قليل عن أحد زعماء الرواقية المبكرة وهو " كريسبوس " لنرى كيف كان نموذجاً للفيلسوف الذي يدافع عن حرية الإنسان لأن الحتمية تثير إشكالات كثيرة في ميدان الأخلاق ،ومن هنا كانت قسمة الأشياء إلى ما يُنسب إلينا أو ما يكون في قدرتنا أو تحت سيطرتنا " in nostra" Potestate " وما لا يمكن نسبته إلينا . وهذه القسمة نفسها دليل على أن هناك نوعين من الأشياء والأحداث : أشياء تخرج عن قدرتنا وهي أحداث الطبيعة وظواهرها ، ثم هناك أفعال البشر التي تُنسب إليهم بخيرها وشرها . ومن هنا كان الإنسان مسئولاً عن كل ما يفعل بحيث يستحق الاستحسان على الأفعال الفاضلة والاستهجان على الأفعال الشريرة . يقول كوبلستون : " إن ذلك يتضمن تعديلاً للموقف الحتمي أو على الأقل الحد الأدنى منه ، وإذا قيل أن ذلك يعني شيئاً من التناقض فإن " كوبلستون " يجيب وهل في استطاعتك أن تجد واحداً من الحتميين متسقاً أو يمكن أن يكون متسقاً مع نفسه بالفعل ؟ وليس الرواقيون استثناءً من تلك القاعدة". (٢)

---

(1) Charlotte Stough : " Stoic Determinism and Moral Responsibility " An Essay in " The Stoic " Edited by John M . Rist , P 203 .

(٢) فردريك كوبلستون " تاريخ الفلسفة " الجزء الأول " اليونان والرومان ، ص ٥٣٠ .

فلا يمكن إذن أن تكون الحتمية الرواقية شاملة لا تترك مجالاً للفعل الإرادي أو المسئولية الخلقية التي اهتمت بها هذه المدرسة اهتماماً كبيراً – فالحتمية الرواقية فيما يرى " كوبلستون " أيضاً – قد تعدّلت كثيراً في الممارسات العملية لاسيما ميدان الأخلاق، ثم هناك عدة أمور لابد أن نضعها في ذهننا ونحاول الإجابة عنها :-

١-إذا كانت الرواقية تقول بالحتمية الشاملة التي لا تسمح بالفعل الإرادي البشري ، ولا المسئولية الأخلاقية ، فكيف نفسر موقف الرواقية من العواطف والانفعالات ومنها : اللذة والحزن ، والرغبة والخوف، وهي لا عقلية وغير طبيعية ، وكيف نفسر قول بعض الشراح والمفسرين من " أن الأخلاق الرواقية كانت من الناحية العملية ، إلى حد كبير ، حرباً ضد العواطف والانفعالات ومحاولة بلوغ حالة الحرية والسيادة الأخلاقية (١) وماذا عساها أن تكون هذه الحرب مالم تكن ذات إرادة صلبة؟!

٢- إذا كانت الرواقية تقول بالحتمية الشاملة التي يتم معها إلغاء الإرادة البشرية ، فلماذا يقدمون نصحاً أخلاقياً للآخرين ،و ما قيمة النصح الأخلاقي والوعظ إلا بإتباع السلوك الفاضل ، والبعد عن سلوك معين والاقتراب من آخر ما لم يكن من الممكن تنفيذه – لا شك أن هناك غرضاً من النصح الأخلاقي " .. فالإنسان حر في تغيير موقفه الداخلي وقادر على تغييره ويتضمن ذلك بالطبع تعديلاً للموقف الحتمي ..! (٢) وإلا كان النصح والوعظ مجرد عبث لا طائل وراءه !

٣ – كيف يمكن أن يتحقق للرواقيين ما يصبون إليه من ربط بين الفضيلة والسعادة، بل كيف يتحقق " ضبط النفس " "والتحكم في الذات " ، وكذلك " التحرر من الانفعال " و الخلو من الرغبة " والتخلص من الهوى " .. الخ مالم تكن لدى الإنسان إرادة قوية هي التي يستخدمها في تحقيق هذه الأهداف كلها .. ؟ ! (٣)

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣٢ – ٥٣٣ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٣٢ – ٥٣٣ .

(٣) د . زكريا إبراهيم " المشكلة الخلقية " العدد رقم ٦ من مشكلات فلسفية – الطبعة الثانية مكتبة مصر بالفجالة عام ١٩٧٥ ص ١٤٧ .

٤ – وإذا كان الرواقيون يقولون إن الإنسان مكون من نفس وجسم فما قيمة هذه التركيبة مالم يكن هناك فارق بين النفس والبدن فإذا كان الجسم يخضع للحتمية الشاملة، قد يجوز القول بأن للنفس اختياراً تتميز به عن البدن.

٥– لقد تبنى فلاسفة الرواق سُلماً للقيم . وذلك يعني ضمناً أن الرجل الحكيم حر في اختيار القيم العليا وتجنب القيم الدنيا . وهكذا نجد أننا كلما أنكرنا وجود الحرية فإنها تعود فتتسلل بحيث تدخل من جديد من الباب الخلفي – مما يذكرنا بعبارة الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر – الشهيرة " إن الإنسان محكوم عليه أن يكون حراً ..! " فإنكار الحرية يعني العودة إلى تأكيدها : اطردها من الباب وسوف تعود من النافذة !

٦ – إذا كانت الرواقية تقول إن الله يُنّظم الأشياء نحو الأفضل ، فلابد أن تقول في الوقت ذاته بحرية الإنسان !الأخلاقية ، وإلا وقعت في مأزق الثيوديسيا Theodicy(١) إذ كيف نوفق بين وجود إله خيّر وعادل وهو ما تقول به الرواقية ووجود الشر في العالم . وهو مالا يستطيع أحد أن ينكره (الكذب ، السرقة ، القتل ، المرض)؟ أو بمعنى آخرَ منْ الذي يفعل الشر في العالم..؟ أهو الله المنظم الخيّر العادل ؟ حاشا لله ! إن المبدأ الأساسي في تفسير الشر في العالم هو " النظرية التي تقول إن نقص الأفراد يساعد في كمال الكل ، ولا ينجم عن ذلك القول بأنه لا يوجد شر حقيقي في العالم عندما ينظر إلى الأشياء من منظور الأزلية، بل إن كيرسبوس يذهب إلى أن الخيرات لا يمكن أن توجد وحدها بدون الشرور ، على اعتبار أن الأزواج من الأضداد، لا يمكن لأحدهما أن يوجد بدون الآخر ، بحيث أنك لو حذفت أحدهما فإنك تحذفهما معاً .. "(٢)

---

(١) الثيوديسيا .. Theodicy كلمة يونانية الأصل مكونة من مقطعين Theos إله و Dike العدالة نظام عادل .. والمشكلة التي يعبر عنها هذا المصطلح – وقد أقلقت ليبتز فيما بعد هي كيف نوفق بين وجود إله خيّر وعادل ووجود الشر في العالم – نقلاً عن المرجع السابق ص ٥٢١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٢٢ .

إن وجود الشر في العالم يعني أن هناك فاعلاً هو الذي يقوم به وبالقطع ليس هو الله الذي لا يجوز عليه أن يفعل الشر لأنه خير وعادل . فلابد أن يكون هو الموجود العاقل – الإنسان – الذي يستطيع التفرقة بين الخير والشر وهو حر الإرادة ، فهل يفعل الشر عامداً وكان في استطاعته أن يسلك طريق الخير بدلاً من ذلك ، ولهذا السبب ترانا نوجه له اللوم والتأنيب بل حتى العقاب إذا لزم الأمر.

٧ – يعتقد الرواقيون أن ليس ثمة فعل شرير يُستهجن في ذاته؛ لأن النية عند الفاعل أو الحالة الاجتماعية له هي التي تجعل الفعل شريراً . أما الفعل نفسه ككيان طبيعي فهو محايد – ولو أخذنا ذلك على أنه ينبغي أن النية الطيبة تبرر أي فعل – عندئذ فإن مثل هذا الفعل يدخل في النظام الأخلاقي وسوف يكون إما خيراً أو شراً – رغم أنه إذا ما أنجز الفاعل فعلاً سيئاً بنية خيّرة خالصة متورطاً في حالة من الجهل تجعل الفعل مضاداً للعقل السليم ، فإن الفعل لا يكون إلا شراً مادياً . ولا يكون الفاعل مذنباً لهذه الخطيئة الصورية . ومع ذلك فإذا ما نظرنا إلى الفعل في ذاته فحسب على أنه كيان إيجابي بمعزل عن طابعه كفعل بشري عندئذ يكون كريسبوس على صواب في قوله أن الفعل بما هو كذلك ليس شراً ، بل الواقع أنه خيّر ، وذلك لأن الحرية الأخلاقية هي شيء خير للإنسان .

٨ – معنى ذلك كله أن حرية الإرادة ، ومن ثم حرية الفعل البشري جزء أساسي من البناء الأخلاقي ، فلا أخلاق ،ولا سلوك فاضل أو رذل إلا إذا كان سلوكاً حراً يمكن أن يُنسب إلى صاحبه ، بحيث نقول إن فلاناً قام عامداً بالسرقة فهو إنسان شرير وسلوكه رذل ، أو أن فلاناً يعطف على الفقير ، ويساعد المحتاج ، ويشفق على المسكين ، ويداوي المريض .. الخ فهو لهذا السبب إنسان فاضل .ومن ثم فلابد لنا أن نقول مع كريسبوس " أن القدرة على الفضيلة (أو السلوك الخيّر الفاضل ، تتضمن في الحال القدرة على الرذيلة (أي السلوك الشرير الرذل) .. أو أن الحرية في أن تكون فاضلاً ، تتضمن أيضاً حرية ارتكاب الخطيئة ، حتى أننا نستطيع أن نقول " إن الحرية الأخلاقية هي شيء أساسي للأخلاق فضلاً عن أنها شيء خيّر للإنسان .. "

٩ – بقى أن نقول أن نظرية النفس عند الرواقيين مربكة أيضاً فالنفس الفردية مثلها مثل " نفس العالم " عقلية دينامية روحية . وهم ينفون وجود النفس في النبات، ولا يقرون بها إلا للحيوان ، ثم أنهم من ناحية أخرى ينكرون العقل على الحيوان إنكاراً باتاً ، فيحتفظون بذلك للإنسان بسمو مكانته . (١)

إن العقل الجزئي الخاص بالنفس الإنسانية يكمن في التصديق الذي يربط بين التصور وبين الميل أو النزوع : فالصفة الذاتية المميزة للنفس العاقلة هي أن إيجابية النزوع لا تتولد مباشرة من التصور، وإنما بعد أن تكون النفس محصت التصور بطوع إرادتها وموافقتها أو تصديقها أو معارضة من قبل النفس تمنع الفعل. (٢)

وما يهمنا في هذه الفقرة أمرين :

الأول : أن الإنسان كائن متميز، وليس مجرد ظاهرة من ظواهر الطبيعة تسري عليه حتميتها الشاملة .

الثاني: إنه يتميز بوجود إرادة خاصة هي التي يقدم بواسطتها على إتمام الفعل.

وسوف نتناول فيما يلي فيلسوفاً من الرواقية المبكرة كنموذج للرواقي الذي دافع عن حرية الإنسان في اختيار الطريق الذي يسير فيه ضد – المصرّين – على الحتمية الرواقية الشاملة بقدر غير قليل من الارتباك، وهذا الفيلسوف هو " كريسبوس " .

---

(١) اميل برهييه " تاريخ الفلسفة " الجزء الثاني (الفلسفة الهلنستية والرومانية) ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة بيروت عام ١٩٨٢ ص ٧٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٥ .

الرواقية المبكرة

" كريسبوس Chrysippus نموذجاً .... "

[٢٠٨-٢٨١ ق.م]

أولاً : حياته ومؤلفاته :

آخر ممثلي الرواقية المبكرة وأغزرهم إنتاجاً حتى أن ديوجنس اللايرتي يذكر في كتابه " حياة مشاهير الفلاسفة " أنه كتب أكثر من سبعمائة كتاب لم يبق منها سوى شذرات صغيرة . وقد ولد في مدينة صول Soloi بجزيرة قبرص عام ٢٨٠ ق. م وكان مثل معظم فلاسفة الرواقية من أصل شرقي ثم هاجر إلى أثينا (١) حيث خلف كليانتس Cleanthes في رئاسة المدرسة الرواقية وكانت قد تدهورت فأعاد تنظيمها وأمدها بدفعة قوية من منطقه وقدرته على الجدل والرد على خصوم المدرسة فأصبح بذلك " المؤسس الثاني للمدرسة الرواقية " . (٢) .. بعد زينون المؤسس الأول – بل يذهب ديوجنس في كتابه السالف الذكر إلى أن القدماء كانوا يقولون " لولا كريسبوس لما أمكن أن تقوم للمدرسة الرواقية قائمة .. " بعد اضمحلالها في عهد كليانتس (٢٧٠ - ٢٠٠ ق.م) (٣) أما شخص كريسبوس من الناحية الجسدية فقد كان هزيلاً ضعيف

---

(1) Emile Brehier : " Chrysippe et , L'Ancien Stoicisme " Presses Universitaires De France , 1951 . P.7 .

(٢) يقول رسل : أن كريسبوس هو الذي جعل المذهب الرواقي مذهباً متسق الأجزاء تسري فيه – روح التعمق العلمي – انظر كتابه " تاريخ الفلسفة الغربية " ترجمة د . زكي نجيب محمود ، الجزء الأول ، ص ٤٠٨ .

(٣) كانت جميع التواريخ عن فلاسفة الرواق مثار للجدل ، وقام كثير من الباحثين بمناقشة هذا الموضوع منهم وول ديورانت ، راجع " قصة الحضارة " المجلد الثامن ، ترجمة محمد بدران ، ص ١٧٩ ، ومنهم تسلر Zeller ، فاميل برهييه الذي يجعل مولد كريسبوس عام ٢٧٧ راجع كتابه : Emile Brehier "Chrysippe et , L' Ancien Stoicisme" presses Universitaires De France , 1951. P.7

البنية على نحو ما نتبين ذلك من تمثال له من " السيراميك " يمتطي صورة حصان . وهذا هو السبب في أن كليانتس Cleanthes كان يقول عن كريسبوس إنه الحصان المختفي . غير أن كريسبوس كان من ناحية أخرى شخصية شديدة الثقة والاعتداد بنفسها إلى درجة الغرور أحياناً . وإليك بعض الأمثلة : -

١ – عندما عيب عليه أنه لم يذهب مثل بقية الجمهور – للاستماع إلى دروس أرسطون ... Ariston كان جوابه : " لو أنني كُنت أتابع الجمهور لما درست الفلسفة أصلاً..!"

٢ – لم يحدث قط أن أهدي كتاباً من كتبه الكثيرة لأي ملك من الملوك كما جرت عادة المفكرين والفلاسفة في ذلك الوقت .

٣ – عندما أرسل الملك بطليموس إلى كليانتس يطلب منه الحضور إلى بلاطه أو أن يرسل مَنْ ينوب عنه ، أخذ سفيروس Sphaerus على عاتقه القيام بهذه الرحلة ، في حين احتقر كريسبوس الذهاب إلى هناك . (١)

٤ – كان أول مَنْ غامر بالخروج من الرواق لإلقاء محاضرات في الهواء الطلق في اللوقيون .

أما من حيث القدرات العقلية فيروي ديوجنس اللايرتي في كتابه " حياة مشاهير الفلاسفة " أنه كانت لدى كريسبوس القدرة على صياغة حجج وبراهين بالغة الغرابة مثل :

أ – " مَنْ يفشي أسرار الدين لمنْ لا يعلمها فهو كافر ، ومن المؤكد أن رئيس الكهنة يبوح بالأسرار لمن يجهلها ولا يعلمها فهو إذن كافرٌ .

---

(1) Diogenes leartius : " lives of Eminent Philosophers " ed . by R . D. Hicks . vol 11 Harvard University Press , the leob clzssical library 1991 , P . 295 .

ب – " ما لا يوجد في المدينة لا يوجد في البيت أيضاً ، ولا توجد بئر في المدينة ، وإذن لا يوجد بئر في البيت كذلك ...! " .

ج – " هناك رأس ما ، وهذه الرأس ليست لك . ومن ثم فليست لك رأس .."

د – " لو كان هناك إنسان في ميغاراً ، فإنه لا يوجد في أثينا ، والآن هناك إنسان في ميغاراً ، وإذن فلا يوجد إنسان في أثينا ... " .

هـ – " لو أنك قلت شيئاً فإن هذا الشيء يمر بشفتيك ، والآن أنت تقول كلمة عربة ، وإذن فهناك عربة تمر بشفتيك ! .

و – " لو أن هناك شيئاً لم تفقده فإن ذلك يعني أنك لا تزال تمتلكه ، وأنت لم تفقد قرنين ، فأنت إذن تملك قرنين " (١) .

ويقول بعض المؤرخين أنه اتجه لدراسة الفلسفة بعد أن صودرت جميع ممتلكاته الخاصة التي ورثها عن والده، . وأصبحت من بين ممتلكات الملك. أما براعته في الجدل فيبدو أنها جاءت بسبب انضمامه بعض الوقت إلى الأكاديمية،واستماعه إلى مجادلات الشكاك لاسيما أركسيلاوس، ثم استخدامه لطريقتهم في الجدل والرد على فلاسفة الأكاديمية والفلسفة الأبيقورية في وقت واحد .

ولم يبيّن " ديوجنس " ماذا كان يقصد بهذه الأقيسة العجيبة " ولكن يُخّيل إلينا أن كريسبوس إنما أوردها مازحاً ، وأنه أراد أن يبيّن قلّة الكفاية في أقيسة المنطق الصوري الارسطاليسي .. " (٢) .

وأما مؤلفاته فقد سبق أن ذكرنا أنها تجاوزت سبعمائة (يقال إنها ٧٠٥ كتاباً) ويرى ديوجنس اللايرتي " أن امرأة عجوز كانت تجلس إلى جواره قالت إنه

---

(1) Diogenes Laertius :Ibid , P . 297 .

(٢) د . عثمان أمين " الفلسفة الرواقية " ص ٦٢ .

اعتاد أن يكتب في اليوم خمسمائة سطر". [1] وتشمل قائمة المؤلفات التي ذكرها ديوجنس اللايرتي ١١٩ مخطوطاً في "المنطق" مقسمة إلى خمس مجموعات تعود هي نفسها فتنقسم أقساماً فرعية، ثم قائمة مؤلفة من ٤٣ كتاباً في الأخلاق تنقسم إلى ثلاث مجموعات. غير أن أميل برهييه يرى أن هذه المجموعات التي يسوقها : -

- تعريف أفكار المنشأ (في الأخلاق) مهداة إلى ثيرودورس في سبعة كتب.
- تعريفات تتعلق بأنواع أخرى في العلم مهداة إلى ميترودورس : كتابان [2]

المجموعة الثانية :

- الابتسامات مهداه إلى أرستوكليس في ثلاثة كتب.
- من التعريفات مهداه إلى ميترودورس في سبعة كتب [3].

وعلى هذا النحو يسير "ديوجنس اللايرتي" حتى نهاية الكتاب السابع من كتابه. وأغلب الظن أن كلمة كتاب، وثلاثة أو سبعة كتب .. الخ كانت تعني ذلك الوقت ما نعنيه نحن الآن بكلمة فصل.

- في ترتيب العبارات وعناصرها مهداه إلى فيليب في ثلاثة كتب.
- في أركان الحديث مهداه إلى نيكياس في كتاب واحد.
- الحد النسبي : كتاب واحد.

المجموعة الثالثة :

- في مواجهة أولئك الذين يعارضون القسمة : كتابان.

---

(1) Ibid : Diogenes Laertius , P . 291 .

(2) Ibid , p . 315

(3) Ibid .315

- في الصور الملتبسة الدلالة : في أربعة كتب .

- في التباس ضروب القياس الشرطي : كتابان .

- مدخل لدراسة ألوان الالتباس وازدواج الدلالة .

- موجز للبراهين والضروب .. الخ (١) .

وهو يستخدم على هذا النحو صفحات طويلة ثم ينتقل إلى الحديث عن البحوث الأخلاقية نسوق نماذج منها : -

تبحث الأخلاق في تصنيف المفاهيم الأخلاقية.

المجموعة الاولي :

- موجز للنظرية الأخلاقية مهداة إلى ثيودورس في كتاب واحد .
- القضايا الأخلاقية في كتاب واحد .
- مقدمات محتملة للنظرية الأخلاقية مهداة إلى فيلوماثيس : في ثلاثة كتب .
- تعريفات للشر والسلوك الرذل مهداة إلى ميترودورس : كتابان .
- تعريف الوسط أخلاقياً مهدى إلى ميترودورس : كتابان .

ورواية ديوجنس " أولاً ناقصة وليست مكتملة ثم هي ثانياً يسودها الاضطراب فأحياناً ينقطع السياق وتدخل أسماء كتب ليست من المنطق مثلاً في مجموعة المنطق ، أو ليست من الأخلاق (في مجموعة الأخلاق) وهكذا ... (٢)

---

(1) Ibid .315

(2) Emile Brehier : Chysippe ... " P 20 - 21 .

ولا بأس من أن نسوق نماذج مما أورده ديوجنس اللايرتي من مؤلفات كريسبوس في نهاية الكتاب السابع من المجلد الثاني من كتابه(ص٢٩٩- ص٣٢٠) على النحو التالي : -

- المجموعة الأولى هي البحوث المنطقية .
- تعريفات جدلية إلى مترودورس Metrodorus في ستة كتب .
- الحدود المستخدمة في الجدل مهداه إلى زينون في كتاب واحد .
- فن الجدل مهدى إلى أرستاجوراس Aristagoras في كتاب واحد .
- الأحكام الشرطية المتصلة في أربعة كتب .
- الأحكام الشرطية المنفصلة في كتاب واحد .
- في طرح الأسئلة : كتابان .
- الكليات الخمس : تسعة كتب .
- الأقيسة الشرطية في كتاب واحد .
- أسماء الأعلام – كتابان .

المجموعة الثانية :

- عناصر الحديث ، والكلمات المنطوقة في خمسة كتب .
- في ترتيب الكلمات المنطوقة في أربعة كتب(١) .

وعلى الرغم مما في رواية ديوجنس اللايرتى عن مؤلفات كريسبوس من خلط واضطراب،فإنها في النهاية، تبين لنا انه كان واسع الاطلاع ، دائب التأليف ، غزير

---

(1) Diogenes Laertius Boo Vll . P . 299 .

الإنتاج، حتى أننا نستطيع أن نقول انه ربما أراد أن ينشئ في علوم زمانه "موسوعة" تحل محل الموسوعة الأرسطية فألف في المنطق ، والطبيعيات ، والأخلاق ..الخ . بل كتب رسائل لم يذكرها ديوجنس وأوردها أميل برهييه في كتابه عنه ، منها : "رسالة في القضاء والقدر" ، " رسالة في النفس" ، "رسالة عن الآلهة ، ....الخ"(١)

ثانياً: فلسفته

أما بالنسبة لفلسفة كريسبوس ، فقد سبق أن ذكرنا أنه كان المؤسس الثاني للمدرسة الرواقية ، وأنه دخل في كثير من المجادلات مع المدارس المعاصرة كالأبيقورية ، والأكاديمية ، والأرسطية ...الخ . لكن ما يهمنا في هذا البحث أن نركز في فكره على التصورات والمفاهيم المرتبطة بمشكلة الحرية التي هي مدار هذا البحث . وسوف نعالج هذه المشكلة من خلال خمسة جوانب أساسية على النحو التالي :

أولا: المعرفة .. والإرادة .

ثانيا: الانتحار وحرية الموت.

ثالثا: القدر والحرية .

رابعا : نوعان من العلل .

خامسا : ما ينسب إلينا .

أولا: المعرفة والإرادة

يذهب بعض مؤرخي الفلسفة إلي أن الفلاسفة القدماء بصفة عامة لم يكن لديهم فكرة عن الإرادة، وانهم لم يجعلوا هناك ملكة للإرادة منفصلة عن العقل . واعتبرت هذه الأفكار حقيقة لا يرقي أليها الشك ، مع أنها خاطئة . فقد كان لدي أفلاطون فكرة عن الإرادة ، وتلك هي الحال أيضا عند أرسطو .

---

(1) E. Brehier : Chrysippe.P.53

وفي استطاعتنا أن نقول انه كان لدي الرواقيين تصور ما عن الإرادة ، فلاشك أن الدعوة الجوهرية للأخلاق عندهم في أن دوافع الرجل الحكيم نقية خالصة فهو دائما يريد ما هو صواب للأسباب معقولة. ومن ثم فان في استطاعتنا أن نزعم أن ما نسميه بمشكلة الاختيار كانت مشكلة مركزية في فكر كريسبوس ٠وإذا قلنا أن هذه الفكرة هي مجرد افتراض يدعمه الدليل. ولهذا قيل أن كريسبوس كانت له ابتكارات مبدعة في حل "معضلة الحرية" ، فضلا عن كثير من المؤلفات التي تنصب حول هذا الموضوع ، مثل: " رسالة في العناية الإلهية" ، "ورسالة في القضاء والقدر" - كما أن إضافاته الجديدة في هذا المضمار كانت تختلف تماما عن الاتجاه العام لمدرسة الرواق(١) .

وإذا كانت مشكلة الاختيار مركزية في فلسفة كريسبوس ، فلا شك أنها تتضمن مشكلة "المعرفة والإرادة " أيضاً ، صحيح أن بعض الرواقيين كان يعرّف غاية الإنسان بأنها"..الاختيار العقلي لما هو طبيعي". ومن هنا اهتم الباحثون بما كان يعنيه الرواقيون " بالاختيار العقلي " . وخصوصا ما إذا كانوا ينظرون إلى المسالة من منظور عقلي بحت ، غير أن كريسبوس- وأتباعه من أعضاء المدرسة الرواقية - رفضوا ما كان يسمي بالفعل العقلي الخالص . وذهبوا إلي أن ما يقرر ويختار في مجري سلوكنا في الحياة هو اكثر من أن يكون الملكة العقلية وحدها (أعني المعرفة العقلية فحسب) لأن الأمر يتطلب وجود إرادة أيضا ، ومن هنا فقد ذهبوا إلي ما يمكن أن يسمى بالشخصية. وهذه الشخصية قادرة علي أن تسلك سلوكا عقليا وسلوكا غير عقلي في وقت واحد وذلك طبقا لما يستطيعه النوع البشري . والسبب أن هذه الشخصية تتضمن أمورا كثيرة منها : الانطباعات، والموافقات ، والدوافع ، والرغبات إلي جانب العقل. وتلك هي الأنشطة السيكولوجية المختلفة التي ينجزها الفرد ، فما الذي يحدث عندما

---

(1) J.M . Rist : Stoic Philosophy Cambridge University Press, P.219

وراجع أيضا : الدكتور محمود مراد في كتابه "الحرية في الفلسفة اليونانية" دار الوفا بالإسكندرية عام ١٩٩٩ ص٢١٥ ،الذي يعتبر كريسبوس نشاذا في الرواقية لأنه كان نصيرا للحرية.

نوافق ونقرر القيام بسلوك جزئي سواء أكان خيرا أم شرا ..؟ من الواضح أن ما يعنيه كريسبوس عندما يقول إن الرجل يزمع القيام بالفعل " س" ؟ معناه انه عرف وقرر أن يسلك السلوك " س" . وانه ينوي القيام به ، ومن هنا فان جميع الموافقات في المجال الأخلاقي، لابد أن تتضمن النية في تنفيذ الفعل الجزئي (١)

وإذا تأملنا في أي فعل بشري لوجدنا انه يتضمن ثلاثة عناصر على الأقل : المعرفة (٢) ثم التصميم والنية (الإرادة) وأخيراً تنفيذ الفعل . وهذه العناصر الثلاثة لن يكون لها معنى مالم يسبقها وجود الحرية ، وإلا فانها تكون عابثة ولا جدوى منها . فافرض مثلاً إنني رجل ثري وعرفت أن من واجبي الأخلاقي الإحسان إلى الفقراء ، فما قيمة هذه المعرفة إذا ما لم يكن عندي حرية التصرف في أموالي .؟ . ثم كيف أنوي تنفيذ الإحسان مالم يكن في استطاعتي أن أقوم بهذا الفعل ؟ ! إنني أشبه بمن رأى غريقاً وكان يرى إنقاذه لأنه يجيد السباحة لولا أنه مكبل بالأغلال في الساقين واليدين ! الحرية أساسية لكل فعل أخلاقي وهي شرط أساسي لكي تعمل الإرادة التي تعرف واجبها جيداً !

ثانيا: الانتحار وحرية الموت.

لم يكن الانتحار في الفكر الكلاسيكي القديم شائعا فحسب ، بل كان مقبولا ومباحا – فلسفيا – أيضا فهو له ما يبرره في مختلف الظروف ، ولعدد من المبررات العقلية بعضها - علي الأقل - جيد ، وهكذا كان له ما يدعمه ويشجع عليه ، حتى اعتبر ظاهرة من ظواهر الفلسفة الرواقية . وفى الفترة الرومانية كان هناك عدد كبير من

---

(1) J M Rist :Ibid

(٢) ومن هنا كان هيجل على حق – عندما ذهب الى ان صيحة المسيح من على الصليب " اغفر لهم يا ابتاه فانهم لا يعرفون ما يفعلون " – لا معني لها لان شرط الفعل الاخلاقي الفاضل والرذل معا ، الصواب والخاطئ – ان يعرف صاحبه ماذا يفعل، فاذا لم يعرفوا ماذا يفعلون فلم طلب المغفرة ؟!.

العمليات الانتحارية الرواقية الشهيرة . ويبدو أن كتابات بعض الرواقية الرومانية عن الانتحار بدت الشغل الشاغل للفلاسفة . وفضلا عن ذلك فقد ارتبط الانتحار بالحرية ، فسينكا مثلا ينظر إلى الإنتحار على انه المبرر المطلق لحرية الإنسان ، بل ربما كان الفعل الوحيد الحر والأصيل(١) . ومن المعتاد النظر إلى موقف سينكا باعتباره يتفق تماما مع الرواقية القديمة . ولقد كان هناك ادعاء مستمر منذ الأيام الأولى للمدرسة الرواقية أن مشكلة الإنتحار منذ الرواقية القديمة لا على إنه " مشكلة " بل على انه فعل إرادي مقبول و مسموح به .

وهكذا أصبحت مشكلة حرية الإرادة مدرجة في مشكلة الإنتحار. وهناك إشارات كثيرة تدل على أن كريسبوس – على الأقل- أولاها اهتماما خاصا طبقا لشهادة كل من "شيشرون" وبلوتارك، والأخير يعزو وجهة النظر هذه إلى كريسبوس نفسه(٢) .

ويذهب كريسبوس إلى أن هناك مناسبات يقوم فيها الرجل الحكيم – وهذا حقه – بممارسة الانتحار ويكون هذا السلوك فعلا مناسبا ، والعكس ، هناك مناسبات يريد فيها الأحمق أن يظل حيا رغم حالته البائسة المزرية ، وينبغي عليه أن يفعل ذلك .

وهكذا يظهر بوضوح ارتباط الحرية بالانتحار، فالرجل الحكيم قادر على أن يقدم على الانتحار بإرادته الحرة ، وباقتناعه بان هناك ما يبرر انتحاره .أما الأحمق- فيما يرى كريسبوس – فان من الخير له أن يفعل ذلك حتى يبقى على قيد الحياة . ولماذا ينبغي عليه أن يكون كذلك...؟ السبب أن الأحمق – رغم أن لديه إرادة حرة ، تمكنه من الإقدام على الإنتحار – فإنه غير قادر على تقديم مبرر عقلي لانتحاره بسبب حمقه . وفى الحالتين فان لدى الإنسان حرية اختيار الحياة أو الموت. وان كان كريسبوس يرى في هذه المناقشة لموضوع الإنتحار أن الرجل الحكيم ينبغي عليه أحيانا أن يقتل نفسه ، و أن يبقى الأحمق على قيد الحياة – وليس واضحا تماما هل يريد من

---

(1) The Stoic Philosophy , by J.M.Rist ,Cambridge University Press , 1969 P.233 .

(2) Ibid .

كلمة" أحيانا" ان تنطبق على الأحمق كما تنطبق على الحكيم سواء بسواء ؟! فيريد أن يقول أنه ينبغي على الحكيم أحيانا أن يموت (لكن ليس دائما) وينبغي على الأحمق أن يعيش؟! أم انه يقصد انه ينبغي على الرجل الحكيم أن يموت ، لكن ينبغي على الأحمق أن يعيش على الدوام؟ ويدعي "بلوتارك" انه هنا يقتبس مباشرة من كريسبوس وينتهي إلى نتيجة هي أن الحمقى ينبغي عليهم أن يبقوا أحياء . والفقرات التي يعتمد عليها الباحثون في ذهابهم إلى الدعوى بأن الإنتحار منظورا إليه على أنه مشكلة من مشكلات الحرية البشرية كان أساسيا ومركزيا في فلسفة كريسبوس هي فقرات مأخوذة من بلوتارك . وكذلك النصوص التي تقول أن الحكيم سعيد سعادة الآلهة لأنه رجل فاضل ، والسعادة هي الفضيلة. أما الإعتراض بان الآلهة لابد أن تكون أكثر سعادة لأنها لا تعانى المرض ، ولا البتر لأي جزء من أجزاء الجسم ، فان كريسبوس يرد عليه بقوله : إن الرجل الحكيم قادر على أن يسير في حياته الخاصة بطريقة تجنبه المتاعب البشرية التي لا تحتمل ، فإذا ما وصل إلى مرحلة راح يعانى فيها من مرض عضال أو آلام مبرحة ، فان مثل هذا المرض سوف يبرر للرجل الحكيم أن ينهى حياته بيده ويقتل نفسه . ذلك لان مثل هذه الحالة يمكن أن تهدد الفضيلة. وعلينا في جميع الحالات أن ننتبه جيدا إلى أن الانتحار فعل إرادي قد يقوم به الرجل الحكيم أحيانا وله مبرارته ، ويبتعد عنه الأحمق لأنه لا يستطيع أن يصل إلي تبريره عقليا . ومن هنا فقد ذهب بعض الباحثين إلي أن " الإنتحار هو الفعل المطلق للحرية . ومن الواضح أن كريسبوس يفكر فيه علي هذا النحو ، فانتحار الرجل الحكيم هو مهرب أو مخرج يمكن أن يلجأ إليه متي يشاء . " (١)

وهناك نص طريف لـ " كريسبوس ساقه " جون م. رست John M.Rist" عن الانتحار يقول فيه :

---

(١) راجع في كل ذلك مقال ج .م. رست J.M.Rist عن الانتحار ٠٠ والحرية في كتابه "الفلسفة الرواقية stoic philosophy" ص٢٣٣ وما بعدها _ مطبعة جامعة كاليفورنيا عام ١٩٧٨ .

".. مهما كانت أنواع العبودية فسوف يبقي الطريق مفتوحا أمام الحرية . فإذا كانت الروح مريضة ، وكانت شقية تعسة بسبب نقصانها و عدم كمالها . فربما أمكن للإنسان أن ينهى أجزائه ، وأحيانا ينهى حياته ذاتها .. وفى أي اتجاه شئت قلب ناظريك وسوف ترى الوسيلة التي تنهى بها أجزائك . انظر: هناك جرف وهاوية .. لكن اسفل الجرف سوف تجد طريق الحرية! انظر هناك ..ذلك البحر، والنهر، والبئر... هناك في القاع تكمن الحرية..! انظر هناك تلك الشجرة المعاقة عن النمو الفاسدة المجدبة..ومع ذلك ففي أفرعها تتعلق الحرية. انظر إلى حلقك، إلى بلعومك،إلى قلبك انها كلها طرق للهروب من العبودية..وهل أبواب الخروج التي أشرت عليك بها صعبة وعسيرة..؟!أتحتاج إلى مزيد من الشجاعة والقوة ..؟ أتسال عن الطرق السريعة إلى الحرية..؟!أنها أي شريان في جسمك فاقطعه!" (١).

فليس الطريق إلى الانتحار مفتوحاً أمام كل إنسان فحسب ، بل انه مفتوح أيضا حتى أمام الأحمق فمن الواضح أن الأحمق قادر أيضا على اتخاذ قرار الموت أن وجد ما يبرر هذا القرار.

ويقول أميل برهييه (E.Brehier) في هذا الموضوع نفسه : " لقد اخترت مثال الإنتحار لان بلوتارك احتفظ لنا برأي كريسبوس فيه ، فمن السهل علينا أن نرى انه يمتد إلى جميع العمليات والوظائف وهو مقياس ما ينبغي أن يعمل ولا يعمل في هذه الأمور، وانه يفرض كقاعدة عامة تطبق على العاقل والأحمق معا . وهذا المقياس هو المطابقة والاتفاق مع الطبيعة على نحو ما نعرفها بوصفها الحاجات الأساسية والحكيم وحده في طريق تجربته مع أشياء الطبيعة – هو الذي يستطيع أن يعطينا قواعد مماثلة . ويستطيع فرضها على الأحمق . ولا تقل عن ذلك حقيقة أن الأحمق يستطيع العيش وفقا لهذه القاعدة .. " (٢)

---

(1) J.M.Rist : Stoic Philosophy P.249 .

(2) Emile Br'ehier: Chrysippe et L'Ancien Stoicisme , presse Universitaires De France , P.233 .

خلاصة ذلك كله أن الإنتحار هو نفسه دليل على أن الإنسان حر ففي استطاعته أن ينهى حياته بإرادته في أي وقت ، ومن هذه الزاوية – زاوية الحرية – كان اهتمام كريسبوس بمشكلة الإنتحار.

ثالثا: القدر والحرية

يتفق كريسبوس مع الاتجاه الرواقي العام في حتمية الطبيعة ، ومن هنا كان تصوره للقدر مسايرا للفهم الرواقي لظواهر الطبيعة وما فيها من وحدة وترابط وشمول للعلّية بين الظواهر كلها .. الخ ، مما يجعل من المستحيل وجود صدفة أو اتفاق ،فكل شئ مرتبط بكل شئ آخر. وما من شئ إلا وله علة وتسير سلسلة العلل والمعلولات حتى تنتهي إلي علّة العلل وهو اللّه . ومعني ذلك انه لا يحدث شئ إلا ما كان قد حدث في الماضي ولا ظاهرة إلا وهي تحمل علتها بحيث تكون معلولا لغيرها . ومن هنا جاء إيمانه بالتنجيم والعرافة ومسارات الكواكب والنجوم وارتباطها بالأحداث " : أكان يمكن أن تصدق نبوءات العرافين والمنجمين لو لم يكن القدر هو الذي يمسك كل شئ بقبضته الحديدية ؟! . والي هذا الحد كان كريسبوس يردد المفاهيم والتصورات الرواقية عن الكون وما فيه من حتمية شاملة . لكنه سرعان ما شعر بان الاكتفاء بهذه المفاهيم وحدها سوف يجعله يواجه مشكله لا حل لها وهي المسئولية الأخلاقية التي كانت موضع اهتمامه الرئيسي : فإذا كان كل شئ حتمي ومقدر سلفا : فكيف يكون الإنسان مسئولا عن أفعاله ؟! وكيف يكون هناك إنسان فاضل يسلك السلوك القويم الذي يثاب عليه ، وإنسان شرير يسلك السلوك السيئ أو الرذل الذي يجعلنا نلومه عليه ، بل ربما نعاقبه عليه ؟! وهل يمكن للثعبان أو العقرب أن يلام أو يعاقب إذا قتل بسمه إنسان ما .. ؟! وهل نلوم النار لأنها تحرق ؟! تلك أمثله للسلوك الحتمي الناتج عن غريزة أو ضرورة طبيعية وهي كلها تبعد عن مجال الأخلاق والمسئولية،ومن ثم تختلف اختلافا جذريا عن السلوك البشري الحر.

وهكذا نستطيع أن نقول أن الإنسان مختلف عن الحيوان والجماد ، وجود العقل عنده- ملكة الاختيار التي تمكنه من أن يختار بين بدائل ، وبالتالي يكون في استطاعته أن يسلك سلوكا آخر غير الكذب ، والسرقة ، والقتل ، والأضرار بالغير...الخ . فيجعلنا نثيبه بدلا من أن نعاقبه، والسبب انه حر ومن ثم لديه القدرة علي الإختيار بحيث يختار هذا السلوك ويبعد عن السلوك الآخر. وهكذا استطاع كريسبوس التوفيق بين الفكرة الرواقية عن حتمية الطبيعة وفكرته هو الخاصة عن حرية الإنسان ، ومن ثم استطاع أن ينقذ المسئولية البشرية والأخلاق ، وربما كان من أهم العوامل التي ساعدته في عملية الإنقاذ هذه : فكرته عن العلية .

رابعا: نوعان من العلل.

من العوامل الأساسية التي مكنته من التوفيق بين حتمية الظواهر الطبيعية والحرية الإنسانية ، فكرته عن العلّية ،فهو يري أن هناك نوعان من العلل الأول هو : " العلل القريبة أو المساعدة " ، والثاني هو: " العلل الأساسية أو الكاملة على حد تعبيره . وعلى الرغم من غموض فكرته عن هذين النوعين وصعوبة تفسير ما كان يقصده منهما فإننا نستطيع أن نقدم تفسيرا معقولا . لـ "جون م . رست " J .M .Rist وهو تفسير نوافقه عليه:

أما العلل القريبة أو المباشرة فهي العلل الخارجية : " فليس ثمة شك في أن كريسبوس كان في ذهنه العلل الخارجية في معظم الحالات التي يذكر فيها العلل القريبة المباشرة والمساعدة . إما النوع الثاني من العلل (وهى العلل الرئيسية الكاملة) فإننا نعتقد انه كان يعنى بها العلل الداخلية ..." (١) .

ففي حالة السلوك البشرى لا يمكن للشخص أن يفعل بدون مثير حسي – والمثيرات الحسية هي وحدها العلل القريبة والمساعدة . وهو يذهب إلى انه على الرغم

---

(1) J.M.Rist : Stoic Philosophy P.214-215 .

من أن العلل القريبة والمساعدة لا يمكن أن تنسب إلينا . فانه لا يمكن أن ينتج من ذلك أن الدافع إلى الفعل لا يمكن أن ينسب إلينا ولا يمكن لهذه النتيجة أن تنتج بدونها ، وبدون العلل الداخلية . وإذا أردنا مثالا ملموسا قلنا أن هطول المطر هو علة قريبة ومباشرة لحملي للمظلة التي تقي ثيابي من البلل ، لكن لابد من وجود علة داخلية عندي هي رغبتي في حماية ثيابي . وقل مثل ذلك في تفسير اى لون من ألوان السلوك البشرى .

وهكذا يكون في استطاعتنا أن نوفق بين الحرية البشرية وحتمية الظواهر الطبيعية : فسقوط المطر يخضع لقوانين حتمية لكنها لا تمنع من وجود حريتي في التصرف إزاء هذه الظاهرة أو تلك ، فليس هناك ما يحتم عليّ أن أحمل المظلة ، فانا الذي اخترت ذلك لكي أحمى ثيابي وجسمي من البلل .

ومهما يكن من تفسير لنوعى العلل فلا شك أن كريسبوس كان على يقين بان النظرية التي تقول بأن جميع الإحداث ضرورية ولها مضامين وأثار مدمرة على الفعل البشرى ، وانه إذا كانت هناك حتمية في الطبيعة فينبغي ألا تمتد لتنسحب على مجال الفعل البشري ، وألا انهارت المسئولية الأخلاقية التي هي عماد الأخلاق عند كريسبوس بقدر ما هي عماد السلوك القانوني والأخلاقي معا . ومن هنا بقيت هناك مساحة للحرية البشرية وسط الحتمية الطبيعية .

خامسا: ما ينسب إلينا.

هناك فكرة أخيرة نود أن نعرض لها سريعا ، وهي فكرة تكررت وترددت كثيرا في الفلسفة الرواقية ، وسوف نراها مرة اخري عند ابيكتيتوس في القسم التالي . وهذه الفكرة هي قسمة الأشياء إلي نوعين" أشياء يمكن أن تنسب إلينا " ، " وأشياء لا يمكن أن تنسب ألينا " . وأحيانا تقال بطريقة اخري هي أن الله خلق نوعين من الأشياء في العالم "أشياء في قدرتنا واستطاعتنا "،"وأشياء لاهي في قدرتنا ولا في استطاعتنا "- والواقع أن مثل هذه القسمة تعنى في الحال أن هناك أشياء حتمية وظواهر جبرية ،

وهنـاك أشـياء لاهـي حتميـة ولا جبريـة . الأولى هـي ظـواهر الطبيعـة : سـقوط المطـر ، وهبوب الرياح ، وفيضان النهر٠٠الخ . والثانية هي أنواع السلوك البشرى المختلفة .

وإذا كانـت هـذه التفرقـة بـين نـوعى الأشـياء أرسـطية الأصـل فـإن معناهـا في الفلسفة الرواقية عموما – وعند كريسبوس خصوصا ليس كذلك؛ إذ يذهب كريسبوس إلى أن مدار الحرية هو أساسا هذه التفرقة بين ما يمكن أن ينسب إلينا (أو ما هو في قدرتنا واستطاعتنا) وما لا يمكن أن ينسب إلينا – وهى قريبة الشبه مما ذكرناه منذ قليل عن العلل الخارجية (مثل سقوط المطر) فهي أشياء وظواهر لا يمكن أن تنسب إلينا – والعلل الداخلية (حمل المظلة) هي أمور يمكن أن تنسب إلينا . وقل مثل ذلك في مجال الفضيلة والرذيلة فهي سلوك من سلوكنا وتصرفاتنا وأفعالنا، فالأشياء التي يمكن أن تنسب إلينا هي تلك الأشياء التي نحن قادرون على فعل أضدادها فالسرقة تنسب إلينا لأننا قادرون على الأمانة . وعلى هذا النحو تكون الفضائل والرذائل ضروب من السلوك البشرى الحر نحن قادرون على القيام بها فنحن قادرون على فعل هـذا السـلوك الفاضـل (الأمانـة والصـدق والشـجاعة والتعـاون .. الخ) . أو ارتكـاب الرذائـل المضـادة . وتظهـر في كـل حالـة عمليـات الثنـاء أو اللـوم ، القـدح أو المـدح ، والتشجيع أو الإحباط ، والثواب والعقاب .. الخ . حسب نوع السلوك : " وهكذا نجد انه لا يمكن أن تنسب إلينا كل ألوان السلوك والأفعال ، وإنما هي تنسب فقط إلى أولئك الذين هم أشرار فحسب .. لكن من الخُلف أن ننكر أن الفضيلة والرذيلة يمكن أن تنسب إلينا ، أو أن الثواب والعقاب ، والثناء والهجاء ، والمدح والقدح .. الخ يمكن أن تنسب إلينا ." وهكذا نخلص إلى الدعوة التي تقول وبقوة شديدة، إن الفضيلة والرذيلة هما من بين الأشياء التي يمكن أن تنسب إلينا لانهما ألوان من السلوك نختارها بمحض أرادتنا وبكامل حريتنا لا جبر فيها ولا إلزام .

فمثلا عندما تنسب إلى فلان سلوك رذل كالسرقة أو الكذب مثلا وأيضا عندما تنسب إلى علان سلوك فاضل كالأمانة أو الصدق أو الشجاعة ...الخ ، فانك في الحال تقول انهما أحرار في سلوكهما؛ وانه كان من الممكن لهما أن يفعلا العكس (١) .

علينا الآن أن ننتقل إلى فيلسوف رواقي آخر كان نصيرا واضحا لحرية الإرادة وللتحرر من العبودية هو " ابيكتيتوس " ..

الرواقية المتأخرة

"أبيكتيتوس نموذجاً" [٥٠-١٣٠]

ابيكتيتوس

ننتقل الآن إلى نموذج آخر من الرواقية المتأخرة وهو أبيكتيتوس الذي كان موضوع الحرية هو شغله الشاغل . يقول د . عثمان أمين : " الفكرة التي تسود فلسفة ابيكتيتوس هي فكرة الحرية التي كان ابيكتيتوس يراها أجلَّ الخيرات وأوفر النِعَم التي نصيبها في هذه الدنيا" (٢) لكننا – قبل أن نخوض في موضوع الحرية عنده – نسوق كلمة موجزة عن حياته ومؤلفاته في محاولة للتعريف به قبل أن نتعرف على فلسفته وإسهاماته في موضوع الحرية على وجه التحديد .

---

(١) " الحتمية الرواقية... والمسئولية الخلقية " بقلم شارلوت ستوفى كتاب جون رست :
J.M.Rist : The Stoics الذي أصدرته مطابع جامعة كاليفورنيا عام ١٩٧٨ ص ٢٠٥

(٢) د . عثمان أمين " الفلسفة الرواقية " ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية عام ١٩٥٩ ص ٢٥٧.

أولاً: حياته ومؤلفاته:

أ- حياته.

لا نعرف من حياته إلا النذر اليسير منها أن ابيكتيتوس - (٥٠ - ١٣٠) - وهو أعظم معلمي الرواقية تأثيراً في الفلسفات التالية - كما يرى بعض الباحثين،(١) ولد في هيرابوليس : Herapolis وهي مدينة من أعمال فرجيا Phrygia بآسيا الصغرى ، وأنه توفى منفياً بعيداً عن روما في مدينة نيكوبوليس Nicopolis جنوب غرب اليونان وقد ولد من أم كانت هي نفسها أَمَةً (جارية) ، كما أنه هو نفسه ظل عبداً عدة سنوات. ثم اعتق بعد موت نيرون عام ٦٨ بقليل ، ومن هنا اشتق اسم ابيكتيتوس - ومعناه العبد باليونانية - ومنذ ذلك الحين أطلق عليه هذا اللقب . وكان سيده هو " أبا فروديتس Epaphroditus " الذي كان ذا حظوة رفيعة عند نيرون، (فالبعض يقول أنه كان كاتم أسرار نيرون أو سكرتيره الخاص، والبعض يقول أنه كان وزيراً من وزرائه ، والبعض الثالث يرى أنه كان من أخلص خلاصائه أو أنه كان عبداً عنده ، ثم أعتقه)- ويروى المؤرخون أن سيده هذا كان رجلاً فظاً قاسياً لا رحمة في قلبه ، يقول رسل : " لقد كان ابيكتيتوس أعرج ، وقد قيل أن عرجه جاء نتيجة لعقاب شديد نزل به من سيده أيام عبوديته "(٢) ويستدلون على ذلك بتلك القصة الغريبة التي تفسر " عرج " الفيلسوف ، فيقولون أن هذا السيد أراد أن يلهو ذات مرة فأتى بآلة من آلات التعذيب ووضع فيها ساق الفيلسوف وأخذ في ليها شيئاً فشيئاً فقال له ابيكتيتوس : " سوف تكسر ساقي! " لكن السيد الفظ القاسي استمر في ليّها حتى انكسرت بالفعل ، فلم يزد الفيلسوف سوى أن قال .. " ألم أقل لك أنك سوف تكسرها ! " . غير أن " سويدس "

---

(1) Philip P . Hallie " Epictetus " in The Encyclopedia of Philosophy " Ed . By Paul Edwards Macmillan Publishing (1967) Vol . 3, P . 1

(٢) برتراند رسل : " تاريخ الفسلفة الغربية " ، الجزء الأول ترجمة د . زكي نجيب محمود، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

ينكر هذه القصة أو يتشكك كثيراً ، على الأقل في صحتها كتفسير لعاهة الفيلسوف التي يردها هو إلى داء المفاصل (وهو مرض كان يلازمه حتى سبب له عاهة العرج). ويبدو أن " سويدس " كان على حق في تشككه في هذه القصة للأسباب الآتية :

أولاً : - مهما كان من صبر ابيكتيتوس وجلده ، فإنه يصعب جداً أن يتحمل إنسان هذا اللهو السخيف مكتفياً بتحذير سيده في البداية من انه " سيكسر ساقه " ثم مكتفياً في النهاية بالتصديق على ذلك بقوله : " ألم أقل لك أنك سوف تكسرها! " .

ثانياً : الأمر الثاني مأخوذ من تاريخ حياة الفيلسوف نفسه ، إذ يذهب المؤرخون إلى أنه ما أن وصل ابيكتيتوس إلى روما عبداً عند " أبا فروديتس " حتى أرسله الأخير إلى أعظم معلم للرواقية في عصره وهو " ميوزينوس روفوس " " Musonius Rufus " ، ليتعلم الحكمة على يديه . فلا يمكن إذن أن يكون هذا السيد وقحاً يستحق الذي يبديه له " ابيكتيتوس " في كتاباته - من الكراهية والاحتقار - والأقرب إلى المعقول أن فيلسوفنا كره سيده لأنه كان يكره العبودية بصفة عامة ، فقد ظل طوال حياته يعشق الحرية ويدافع عنها .

ثالثاً - الأمر الثالث والأخير أن هذا السيد " القاسي الفظ " أعتق عبده " ابيكتيتوس " بعد وفاة نيرون بقليل لتكسب الفلسفة علماً من أعظم فلاسفة الرواقية ، ثم ليقوم بافتتاح مدرسة جديدة في ابيروس Epirus (منفاه) بعد أن نفاه إليها الإمبراطور دوميتيان Domitian " عام ٨٩ أو ٩٦ م (١) .

ولقد التف حوله في هذه المدرسة جمع غفير من الطلاب ، كما كان يدرس فيها أساتذة آخرون قاموا بتدريس المنطق ، والطبيعيات وأخلاقيات المذهب الرواقي.

---

(١) الإمبراطور دوميتيان Domitian (٥١ - ٩٦ م) إمبراطور روما (٨١ - ٩٦م) - حكم الإمبراطورية حكماً اتسم بالقسوة تَم اغتياله في مؤامرة دبرت له بالاتفاق مع زوجته ..

وعندما تقدمت به السن تزوج لكي يربي طفلاً كان والداه من أصدقائه. [1] لكنه بصفة عامة كان فيلسوفاً زاهداً يعيش عيشة الكفاف رغم أنه أثر بفلسفته تأثيراً واسع النطاق ، فيما بعد ، في كل من الفكر الوثني والفكر المسيحي على حد سواء [2] وهناك عبارة ساخرة حفظها لنا المؤرخون تختصر في كلمات قليلة حياته بأكملها وهي :" أنا - ابيكتيتوس - كُنت عبداً أعرج فقيراً مثل أروس ، عزيزاً عند الخالدين. " [3]

ب - مؤلفاته.

يكاد يجمع المؤرخون على أن ابيكتيتوس - الذي اتخذ من سقراط مثلاً أعلى - كان مثله لم يكتب شيئاً . لكن تلاميذه دوّنوا محادثاته ، ولقد بقى لنا منها عدد لا بأس به؛ فالآراء الفلسفية التي سوف نعرض لها لم يدونها ابيكتيتوس بنفسه ، بل تولى تلميذه المخلص" أريانوس Arrianus" [4] هذه المهمة ، ذلك لأنه أراد أن يحفظ للأجيال ذكرى الأستاذ فنشر بعد وفاته بقليل كتاباً سماه : " محادثات ابيكتيتوس " جمع فيها طرفاً من أقوال الأستاذ كما قيدها عند سماعها . ونشر الكتاب في ثمانية أبواب لم يبق منها إلا الأربعة أبواب الأولى من الكتاب [5] . كما كتب "أريانوس"

---

(١) مرجع سابق . الموسوعة الفلسفية . مجلد ٣ . ص١ أما الدكتور عثمان أمين فيقول " عاش ابيكتيتوس عيشة البساطة وحيداً من غير أسرة ، إلى أن وجد يوماً طفلاً متروكاً ، وأراد أن يعوله فاستخدم امرأة فقيرة للعناية بالطفل " الفلسفة الراقية " ص ٢٥٤ .

(٢) " الموسوعة الفلسفية المختصرة " بإشراف د . زكي نجيب محمود ص ٢٢ .

(٣) " معجم الفلاسفة " إعداد جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت الطبعة، الأولى عام ١٩٨٧ ص ١٤ .

(٤) اسمه بالكامل " فلافيوس أريانوس .. Flavius Arrianus وهو مؤرخ يوناني في القرن الثاني كان حاكماً على كبدوكيه Cappadocia ألفّ كتاباً عن حياة الإسكندر الأكبر " وكتاباً آخر بعنوان " وصف الهند " .

(٥) نشرها مع مقدمة ويتني . ج . اوتس Whitney j.Oates أستاذ الكلاسيكيات بجامعة برنستون في كتاب بعنوان " فلاسفة الأبيقورية والرواقية : الكتابات المتبقية كاملة "=

أيضاً كتاباً عن " حياة ابيكتيتوس وموته ". ولكن الكتاب فُقد كله ، ونشر التلميذ كتاباً ثالثاً اسمه " المختصر " أو " المحصل " (١) أجمل فيه فلسفة الأستاذ العلمية إجمالاً قوياً ، لكنه لا يغني عن قراءة " المحادثات " حتى نعرف شخصية الفيلسوف وسمو تعاليمه. (٢) ثم هناك بالإضافة إلى ذلك كله "الشذرات" .. Fragments التي جمعها أريانوس Arrianus وقال عنها "هذه الشذرات جمعها أريانوس تلميذ ابيكتيتوس من مناقشات حول موضوع واحد .. " (٣). وفيها أيضاً بعض الرسائل القصيرة التي كتبها أريانوس وأيضاً بعض الأقوال التي ذكرها روفوس Rufus من أقوال ابيكتيوس عن " الصداقة" وأقوال أخرى عن " الفضيلة " وعن ذكريات " ابيكتيتوس " وفي الثناء على " أجريبنوس ..Agrippinus "... الخ . (٤)

ثانياً : - حرية الإرادة.

سبق أن ذكرنا أن الحرية كانت الشغل الشاغل لأبيكتيتوس طوال حياته ، ونحن هنا لا نقصد الحرية بمعنى خاص ، بل الحرية بكل أنواعها : السياسية ،

=ونشرتها المكتبة الحديثة بنيويورك The Modern library N . Y وسوف نعتمد على طبعة عام ١٩٥٧ .

وقد قام بترجمة محادثات أبيكتيتوس : Fragments e Discourses of Epictetus ب . إ . ماثيسون P.E.Matheson ..... الخ . من ص ٢٢٣ – ٤٥٧ ويعقبها الشذرات التي جمعها " أريانوس " أيضاً من ص ٤٥٨ ص ٤٦٧ وتنتهي الترجمة بالمجمل أو المختصر ابيكتيتوس The Manuel of Epictetus من ص ٤٦٨ – ٤٨٤ .

(١)وسوف نشير إليه طوال هذا البحث باسم " المجمل The Manuel " . وهو في الترجمة الإنجليزية التي أشرنا إليها في الهامش السابق من ص ٤٦٨ – ٤٨٤ .

(٢) الدكتور عثمان أمين " الفلسفة الرواقية " ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(3) The Stoic and Epicurean philosophers (The Complete Extant Writings) ed . by W.J.Oates , P . 458

(٤) راجع ذلك كله في ست وثلاثين شذرة مترجمة إلى الإنجليزية في كتاب أوتس السالف الذكر.

والفلسفية ، وحرية الإرادة أو حرية الاختيار .. الخ وكثيراً ما يكرر الحديث في الموضوع نفسه مراراً لكي يؤكد رأيه عند مستمعيه. ولنبدأ بالإرادة الحرة التي يركز عليها في كثير من أحاديثه.

ينبهنا ابيكتيتوس في الشذرة الأولى من الشذرات التي جمعها أريانوس إلى أن الموضوع الأساسي في الفلسفة هو دراسة الإنسان ، وليس الطبيعة، فليست غاية الفلسفة عند ابيكتيتوس هي البحث عن العلل الأولى. بل غايتها إصلاح الأخلاق وتزكية الأرواح التي هي في نظره قبس من نور الله (١) .

وأهم ما نود معرفته ودراسته في الإنسان هو إرادته : يقول " ما الذي يهمنا في دراسة العالم ؟ ماذا يعنينا إذا ما كان هذا العالم يتألف من ذرات أو من أجزاء لا متناهية أو من نار أو تراب ؟! ألا يكفي أن نعرف الطبيعة الحقيقية للخير والشر؟ والحدود التي يمكن أن تصل إليها الإرادة ؟ وما يمكن أن تناله وما ينبغي عليها أن تتجنبه ؟ وأيضاً دوافع السلوك وما يعترضه. ؟ وأن نجعل من هذه المعرفة قواعد تحكم حياتنا ؟ وأن نستبعد تلك الأشياء التي تجاوز قدرتنا ؟!قد يقال أن الذهن البشري لا يستطيع فهمها أو إدراكها حتى لو قال قائل أننا نستطيع أن ندركها :فما الفائدة التي نجنيها من وراء إدراكنا لها.. ؟! ألا ينبغي علينا أن نقول أن أولئك الذين يذهبون إلى أن هذه الأشياء ضرورية للفيلسوف يرهقون أنفسهم بغير طائل ، ألن يكون الأمر المكتوب على معبد دلفي في هذه الحالة:"اعرف نفسك" .. بغير قيمة .. " (٢)

من ذلك نتبيّن أمرين في غاية الوضوح : الأول أن الطبيعة المادية ودراسة تكوينها ليست في رأي ابيكتيتوس هي الموضوع الذي له أولوية البحث أو الجدير بأن يتجه إليه ذهن الفيلسوف . والأمر الثاني أن الإنسان هو، بالأحرى ، هذا الموضوع المهم

---

(١) د . عثمان أمين ، مرجع سابق ص ٢٥٧ .

(2) Epictetus. Frggments, I (w. j . Oates , P . 458) وقارن النصوص المترجمة في نهاية البحث

من ناحية كما أن إرادته ، أو ما يستطيع أن يفعله بصفة خاصة هو الموضوع الأكثر أهمية من ناحية أخرى ، ولذلك كانت هذه الموضوعات كما نبهنا سقراط . هي الجديرة بأن نركز عليها انتباهنا ودراستنا ، وذلك لأن الحياة ، كما قال سقراط أيضاً – " التي لا يتم فحصها غير جديرة بأن يحياها الإنسان ". (١)

وإذا كان ينبغي علينا أن نبدأ بمعرفة أنفسنا وقدرتنا وقوانا فإن أول شيء يجب أن نعرفه هو : " أن الله قسَّم الأشياء إلى نوعين النوع الأول هو الأشياء التي وضعها في قدرتنا وتحت سيطرتنا . والنوع الثاني هو الأشياء التي لا سيطرة لنا عليها . ولقد وضع تحت سيطرتنا الأشياء النبيلة والرفيعة .. القدرة على التعامل مع انطباعاتنا. وهذه القدرة إذا مارسناها بشكل جيد هي الحرية ، والسلام ، والشجاعة، والصمود ، كما أنها أيضاً: العدالة ، والقانون ، وضبط النفس ،وجميع الفضائل (٢)

علينا إذن أن نعلم منذ البداية إن الإرادة حرة نعم ! لكن حرية الإرادة لا تعني القدرة على كل شيء ، وإنما هناك مجال تمارس فيها الإرادة حريتها ، وهو المجال الروحي والأخلاقي أو هو بمعنى أدق مجال الفعل البشري – ومن هنا أعني من مجال حرية الإرادة والفعل تنبع المسئولية الأخلاقية كما سنرى بعد قليل – ثم هناك مجال آخر يجاوز إرادتنا ولا ينبغي أن نقول أن الإرادة هنا "مقيدة" أو "مجبرة" لأنك لم تستطع أن تقوم بهذا الفعل كأن تسير مثلاً فوق الماء ، أو تدفع هذا الجدار بيدك لتهدمه، أو أن تطير في الهواء .. الخ فإذا لم تستطع أن تفعل فعلاً من هذه الأفعال فلا يمكن أن يقال إنك " مقيد " أو " مجبر " .. بل لابد أن تقول إن هذه الأفعال تخرج من دائرة الفعل

---

(١) وراجع أيضا النصوص في نهاية البحث ..

(٢) العبارة وردت في " محاورة الدفاع " لأفلاطون ٣٨ – أ – وقد استشهد بها ابيكتيتوس في الكتاب الأول . الفصل السادس والعشرون . وعنوانه " ما هو قانون الحياة ؟ " ص ٢١٠ من نشرة واوتس السالفة الذكر.

Epictatus , Fragmenets , 4 (P . 459) .

البشري ، فهي تجاوز القدرة البشرية . ومن هنا " فإنه ينبغي عليك أن تريد ما يريده الله ، وأن تأخذ بقسمة الأشياء التي وضعها ، وأن تتمسك بقوة بكل ما يقع في دائرة قدرتنا ، وأن نترك ما ليس في قدرتنا من نظام العالم .. " (١).

ويعود ابيكتيتوس في كتابه " المجمل .. The Manuel " ليشدد على أهمية هذه التفرقة التي يعتبرها بعض الباحثين عمدة الحرية الإنسانية . (٢) وهي التفرقة التي رأينا من قبل عند كريسبوس تحت اسم ما ينسب إلينا ، ومالا يمكن أني ينسب إلينا ، والعلل الخارجية والعلل الداخلية .

فيقول من " بين جميع الأشياء الموجودة هناك بعض منها في قدرتنا ، وبعضها الآخر ليس في قدرتنا : فمن النوع الأول الفكر ، والدوافع وإرادة الحصول على كذا ، وإرادة أن تتجنب كيت ، باختصار كل شيء يقع في نطاق الفعل البشري. ، أما الأشياء التي لا تكون في قدرتنا فتشمل الجسم ، والملكية الخاصة ، وسمعتنا ، ومناصبنا ، وباختصار كل شيء لا يدخل في أفعالنا ، والأمور التي تدخل في قدرتنا هي بطبيعتها حرة طليقة لا يعوقها عائق .

.. تذكر ، إذن ، إنك إذا ما تخيلت أن ما هو بطبيعته عبد ذليل هو حر وإذا ما تخيلت ذلك فإنك سوف تحزن وتتفجع وربما لُمت الآلهة والناس. لكن لو أنك اعتقدت أن ما هو لك ينتمي إليك وحدك ، وأن ما هو للآخرين فهو ينتمي إليهم وحدهم ، فلن يستطيع أحد أن يرغمك على شيء ، أو يضع أمامك العراقيل ، وفي هذه الحالة لن تلوم أحداً ، ولن تتهم أحداً ،ولن تفعل شيئاً ضد إرادتك ،ولن يستطيع أحد أن يؤذيك ، ولن يكون لك أعداء ،ولن يلمسَّك أذى ! " . (٣)

---

(١) Ibid P.459 وانظر النصوص المترجمة في نهاية البحث

(٢) د . عثمان أمين " الفلسفة الرواقية " ص ٢٥٩ .

(3) The Manuel of Epictetus I (Oates , P . 268) .

ثالثاً : - حرية الفعل البشري .

الإنسان ، إذن ، حر الإرادة ولا يمكن أن يكون مقيداً أو مجبراً طالما فهم جيداً قسمة الأشياء السالفة الذكر ، فسوف ينتهي إلى أن " المنطقة الحرة " عند الإنسان هي حقاً منطقة أفعاله التي تُجَسد إرادته ، أو أنه صاحب الإرادة التي تتحقق عن طريق الفعل .

ولقد خصص فيلسوفنا فصلاً كاملاً " عن الحرية " – هو الفصل الأول من الكتاب الرابع – وقد جعل عنوانه " عن الحرية " – وهو يبدأه بهذه العبارة الجامعة:" الإنسان حر – وهو ذلك الذي يعيش كما يريد ، وهو ذلك الذي يقف في مواجهة القهر والعقبات والعنف ،وهو مَنْ كانت دوافعه طليقة غير مقيدة ،وهو منْ ينال ما يريد،و يتجنب ما يريد أن يتجنبه .. " . (١) هل هذه كلمات فيلسوف يؤمن بالجبر ويعتقد أن أفعال البشر حتمية ؟! أنحن أمام مفكر جبري يصف أفعال الإنسان بأنها ليست له بل تخضع لظروف قاهرة تفوق طاقته ؟

إننا إذا ما درسنا مؤلفات ابيكتيتوس دراسة جيدة لا نجد فيها عبارة واحدة تفيد أن الإنسان مجرد ظاهرة من ظواهر الطبيعة تسري عليه قوانينها الحتمية ، فليس له من أمره شيئاً وكأنه ريشة في مهب الريح !. ولم يقل ابيكتيتوس ما يسميه البعض " بقانون الطبيعة الضروري الذي يحكم سير الوجود ،ولا يمكن لأحد أن يخرقه .." (٢). بل قال – على العكس – بحرية الفعل البشري كما قال إن حرية النفس تفلت من سلطان الناس وسلطان الأشياء : " وتساءل مَنْ ذا الذي يستطيع أن يتغلب على إرادتنا نفسها .. ؟ بل ذهب الفيلسوف أكثر من ذلك إلى أن " حريتنا تفلت من سلطان الله نفسه ، فالله الذي منحنا الحرية محال أن يسلبنا إياها .

---

(1) The Dicourses of Epictetus Book 4 , ch . I (W. Oates , P . 406) .

(٢) د . محمود مراد : " الحرية في الفلسفة اليونانية " دار الوفاء للطباعة والنشر ، الإسكندرية ١٩٩٩ ص ١٠٩ .

والمنحة الإلهية لا تسترد كالمنح البشرية . وإذن ففي الحرية يجد الإنسان مستنده الذي يطمئن إليه .

وباختصار فإن ابيكتيتوس يقول بعد ذلك كله : " لو كنا واهمين حين نصدق كلام أساتذتنا بأننا لا نملك إلا حريتنا ، وأنه لا شيء غيرها يهمنا ، إذن لكنتُ أول المرحبين بهذا الوهم " (١) وفي الفصل الثاني عشر وعنوانه عن الرضا On Contentment من الكتاب الأول من " أحاديث ابيكتيتوس " يعود إلى مناقشة الحرية التي لا يمل مطلقاً من الحديث عنها ، لكنه يبدأ الفصل بالحديث عن وجود الآلهة – لأنه سينتهي إلى أن الحرية البشرية تتفق تماماً مع العناية الإلهية " فالله ، القادر على كل شيء ، هو الذي نسَّق الأشياء ورتَّبها وجعلها تتفق مع إرادتنا الخيِّرة لأنه هو نفسه خيِّر . يقول :

"أما فيما يتعلق بوجود الآلهة فهناك مَنْ يرى أن ما هو إلهي لا وجود له – وهناك رأى آخر يرى أنها موجودة لكنها محايدة وغير فعالة ، ولا علم لها بشيء ، وآخرون يرون أن الله موجود لكنه ليس عليماً بكل شيء ، وإنما بالأشياء العظيمة وحدها ، والأشياء في السماء فهو لا يهتم بالصغائر أو الأمور التافهة لكنه لا يعلم شيئاً على الأرض . وهناك فريق رابع يرى أن الله يعلم أيضاً الأشياء الأرضية، والأفعال البشرية ، لكن بطريقة عامة فحسب دون أن يهتم بالأفراد (٢) . وهناك فريق خامس ينتمي إليه " أود سيوس"، وسقراط ، الذي قال : " ما من حركة من حركاتي تَخْفى عليك" (٣) .

---

(١) محادثات ابيكتيتوس الكتاب الأول ص ٢٣٢ من نشرة و. ج . أوبس ، وراجع أيضاً الدكتور عثمان أمين الفلسفة الرواقية ص ٢٥٩ .

(٢) رأى أرسطو " الذى يقول :" أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات " وهى الفكرة التى كفرَ الإمام الغزالي كل مَن يقول بها.

(٣) هذه العبارة ذكرها هو ميروس في الإلياذة (الكتاب العاشر ٢٧٩) – وقد جاءت على لسان أدوسيوس وهو يتضرع الى الآلهة بأثينا لكي تقف إلى جانبه كما تفعل دائما في جميع الأزمات.

وقبل أي شيء آخر علينا أن نفحص هذه الآراء لأنه ما لم تكن هناك آلهة فكيف يمكن لي أن أتبعها أو أقول أنها الغاية التي يسعى الإنسان للوصول إليها ؟ ثم كيف يمكن لي أن أكون حراً .. ؟ ذلك لأن الإنسان الحر هو ذلك الذي تحدث جميع الأشياء وفقاً لإرادته . وهو مَنْ لا يعوقه عائق .

" ماذا ، إذن أتكون الحرية هي نفسها الجنون ؟ حاشا لله ! فلا شيء مشترك بين الحرية والجنون.

- لكنك تقول : أنا أريد أن تحدث الأشياء وفقاً لما أراه خيراً .. أيا ما كان .. أليس ذلك ضرباً من الجنون ، ألا تعلم أن الحرية شيء نبيل وجديره بالاحترام والتقدير .. ؟

مع أنك حين تريد لأفكارك العفوية أن تتحقق فليس ذلك شيئاً نبيلاً وإنما هو شيء مخجل ..

انظر مثلاً إلى قواعد النحو كيف يمكن أن نسلك بإزائها ؟

أفي استطاعتي أن أكتب اسم " ديون .. Dion " كما أشاء ؟ كلا بالطبع ! فقد تعلمت أن أسير على الطريقة السليمة في الكتابة . وماذا بشأن الموسيقى ؟ الشيء نفسه . وهكذا بصفة عامة في كل ضروب الفن والعلم . وإلا ما كان للعلم قيمة ، إذا كان كل شيء سوف يتطابق بذاته مع إرادة كل إنسان .

أتقول إذن أنه في هذا المجال وحده – الذي هو أعظم المجالات جمعاً وأشدها خطراً – ألا وهو مجال الحرية ، يسمح لي فيه أن أطلق العنان لرغباتي العابرة .. ؟ مستحيل ! فالتربية تعلمني أن أشكل إرادتي لتتفق مع سير الأحداث . فكيف تقع الأحداث ؟ أنها تحدث على نحو ما نسَّقها وقدَّرها منظِّم الأحداث (الله) لقدَ قدر أن يكون الصيف والشتاء مواسم الثمار والعقم ، كما قدر الفضيلة والرذيلة ، وكل تلك الأضداد لكي يتحقق انسجام الكون ، وأعطى لكل واحد منا جسدا ، وأعضاء لهذا الجسد ، وَمَلَكات ليرتبط الناس بعضهم ببعض.(١)

---

(1) Epictetus , Book one , chapter 12 (W.J Oates . P.247 – 248) .

معنى ذلك أن ابيكتيتوس يعود مراراً إلى التأكيد على حرية الفعل البشري بشرط أن يفهم فهماً سليماً بحيث تمارس الحرية في مجالها الخاص ولا تتجاوزه ، وأن يضع الإنسان في ذهنه أن القدرة الإلهية نظمت الكون تنظيماً جيداً وليس في قدرة الإنسان تغيير نظامه، بل لابد – على العكس – من الخضوع لهذا النظام واحترامه . أليس غريباً أن يحترم النظام والقواعد التي يضعها هو نفسه ولا يعتبرها قيوداً على حريته - كما هي الحال في قواعد النحو والموسيقى وغيرهما ولا يعتبر احترام نظامهما أو قواعده قيوداً على حريته – لكنه يعتبر نظام الظواهر الكونية قيداً على حريته ؟ ! ثم هل ظواهر العالم وأحداثه تُعَد ميداناً للفعل البشري يمكن أن يعبث به كما يحلو له ؟! ثم هل حرية الفعل البشري تعني إطلاق العنان لرغبات الإنسان وشهواته تعربد كما تشاء ؟! أليس ذلك هو الفوضى والعبث بل هو أقرب إلى الجنون ؟ ! ألن نقول في هذه الحالة أن الحرية هي ضرب من الجنون ، أن لم تكن مثالاً على العته والسفه ؟! والواقع أننا كثيراً ما يغيب عن بالنا أن ميدان الفعل البشري هو ميدان :" السلوك الأخلاقي " . وحرية الإرادة هي حرية الاختيار بين الفضيلة والرذيلة . أو قل إنها الحرية في اختيار السلوك الفاضل والبعد عن السلوك الرذل (القبيح) . فالسلوك الفاضل هو السلوك القيم فعلاً : لأن أشياء العالم الخارجية لا قيمة لها أو هي حسب تعبير ابيكتيتوس " محايدة " أو متساوية القيمة أعني أنها ليست خيراً و لا شراً ، إنما الخير والشر في إرادتنا فحسب . وهو يتساءل : –

– " أين يكمن الخير ؟ "

– ويجيب :

" في إرادة الإنسان "

–" وأين يكمن الشر .. ؟ "

– في إرادتنا ..

- " وأين توجد الأشياء المحايدة ؟ "

- توجد خارج سيطرة الإرادة . (١)

وكأن ابيكتيتوس بذلك قد سبق الفكرة الحديثة التي تقول أن هناك ثلاثة مصطلحات في فلسفة الأخلاق على النحو التالي : -

١ - ما هو أخلاقي Moral عندما أصف سلوك إنسان ما بالأمانة ، أو الصدق أو الوفاء - بأنه سلوك أخلاقي .

٢ - مصطلح " غير أخلاقي Immoral عندما أصف السرقة أو الكذب أو الخيانة ، مثلاً ، بأنها فعل غير أخلاقي .

٣ - مصطلح " لا - أخلاقي Moral - A بمعنى محايد أو بعيد عن دائرة الأخلاق، فلا هو خير ولا هو شر مثل ألوان الجمادات وأفعال الحيوانات التي تخرج عند دائرة الأخلاق ، ومن ثم فلا يجوز وصفها بأنها فاضلة أو رذلة فقطعة الحجر قد تكون جزءاً من بناء أو قد أقذف بها شخصاً فتقتله لكنها مع ذلك " محايدة " وتخرج عن دائرة الأخلاق . (٢)

أما الإرادة التي نفذت الفعل الأول فهي إرادة خيرة ، في حين أن الإرادة التي قامت بالفعل الثاني فهي إرادة شريرة .

أما أشياء العالم ،تلك الأشياء الخارجية التي توجد أمامنا فهي متساوية القيمة ، ذلك لأن الإرادة هي التي تحمل في ذاتها كل خير وكل شر .

---

(1) Epictetus : Discourses , Book 2 , chapter , 16 (W.J. Oates , P . 319) .

(٢) راجع د . إمام عبد الفتاح إمام " فلسفة الأخلاق " دار الثقافة للنشر والتوزيع ص ٣٣ وما بعدها . وللمؤلف نفسه كتاب " الفلسفة " سلسلة الشباب العدد رقم(١) إصدار قصور الثقافة ووزارة الشباب بالقاهرة عام ٢٠٠٣ .

رابعاً : التحرر من الرذائل.

رأينا أن الإرادة البشرية حرة ، وأن الفعل البشري من ثَّم فعل حر ، وأن الخير والشر يكمنان في إرادتنا أعني في اختيارنا الحر للفعل الفاضل أو السلوك الرذل. بلا قهر، ولا إجبار، وليس هناك قانون يحتم علينا أن نختار هذا الفعل أو ذلك . لكن قد تكون هناك بعض المشاعر الإنسانية المألوفة التي تميل بنا إلى هذا السلوك المعني وذلك مثل الشعور بالخوف من السلطة مثلاً .ومن هنا نرى ابيكتيتوس يتوقف في الكتاب الرابع من أحاديثه (الفصل السابع) لمناقشة بعض الرذائل التي ينبغي على الإنسان أن يتخلص منها(١) . وعنوان هذا الفصل" التحرر من الخوف On Freedom From Fear " فهناك ألوان عديدة من الخوف (الخوف من الظلام ، الخوف من حيوان معين ، الخوف من الفشل .. الخ) لكن أخطرها جميعاً : الخوف من السلطان، فلماذا يخاف الإنسان من ذوي السلطان ؟ وكيف يمكن لنا أن نجعله يتخلص من هذه الخصلة الاجتماعية السيئة ... ؟! علينا أولاً أن نحلل هذه الظاهرة وما تفرزه من جبن في نفوس الناس – ومجرد تحليل الظاهرة سوف يشجعنا على الإقدام للتحرر منها .

يتساءل ابيكتيتوس.. " ما الذي يجعل الإمبراطور موضوعاً للخوف " ثم يجيب.. " قد يقول قائل أنه الحراس المحيطون بالإمبراطور لا سيما ما يحملونه من سيوف .. وكذلك أمناء القصر أولئك الذين يغلقون الأبواب في وجه مَنْ يريد الدخول من الزائرين".. (٢)

---

(١)راجع:

Discourses of Epictetus in The Complete Extant writtings Ed.by Whintey j. Oats, 437 ff

Discourses, books IV – Chapter 7, (Oates p, 437) .

(2) Discourses, books IV – Chapter 7, (Oates p, 437)

لكن الأمر الملفت حقاً والذي يدعو إلى التساؤل هو أننا لا نجد مثل هذا الشعور عند الأطفال، على الرغم من وجود الحراس وما يحملونه من أسلحة أو وجود الأمناء الذين يحيطون بالحاكم ؟ يقول ابيكتيتوس :

" لماذا ، إذن ، إذا حضر إلى الإمبراطور طفل ، نجد أنه لا يخاف منه رغم وجود الحراس ؟ ثم لماذا يخاف من الإمبراطور رجل يقف من الحياة والموت موقفاً محايداً لا يعنيه كثيراً إذا كان يعيش أو يموت. ؟! فهو قانع راضٍ بما يُعطى له ، ولو أن هذا الرجل جيء به أمام طاغية فإنه لن يهابه أو يخشى من بأسه – لماذا ؟ " لأن هذا الرجل زاهد في كل شيء! (١) أما الرجل الذي يتعلق بما يملك أو كان حتى يتعلق بزوجته وأولاده ، أو كان باختصار ينظر إلى الأمور الحسية هذه ، بحب وشغف وتعلق ، فإنه سوف يخشى حرس السلطان وما يحملونه من سيوف نعم وسوف تبث هذه السيوف الرعب في قلب هذا الرجل ، بسبب تعلقه بممتلكاته الخاصة . (٢)

وهنا يعود ابيكتيتوس مرة أخرى إلى تكرار الفكرة التي سبق أن رددها مراراً وهي أن حرية الإنسان لا تعني أنه قادر على كل شيء ، أو أنه يملك خيوط الكون في يده ، بل أن الله قسَّم أشياء العالم إلى نوعين الأول يخضع لسيطرتنا مباشرة : (٣) فلا عوائق ولا ضغوط ولا عقبات في سيطرتنا عليها لاسيما إذا عرفنا أن الإنسان موجود كريم ، نبيل حر. (٤) لكن هناك مجموعة أخرى لا تخضع لسيطرته بل تجاوز إرادته. ومن ثم فإن عليه أن يعمل ذهنه ليعرف أن خيره الخاص ، ومصلحته الخاصة يكمنان في مجموعة الأشياء الأولى وحدها أي في مجموعة الأشياء التي تخضع مباشرة لإرادته بغير عائق والتي تعتمد عليه وحده وسوف يعيش في هذه الحالة حراً سعيداً هادىء

---

(1) Ibid ,p.437 .

(2) Ibid , P . 437 .

(٣) راجع النص الأول من مجمل ابيكتيتوس من النصوص المترجمة في نهاية هذا البحث .

(4) Epictactus . Ibid . p. 438 .

النفس حامداً شاكراً الله على كل شيء : فالإنسان يجد أينما ذهب شيئين لا يتغيران : " العالم الذي يستحق الإعجاب ، والله الذي يستحق الحمد والثناء .. " لكنه إذا وجد أن خيره وصالحه في أشياء خارجية تجاوز إرادته فهو مضطر أن ينحني ويصبح عبداً عند من له السيطرة على هذه الأشياء التي ينصب عليها اهتمامه ويتمركز حولها قوته . (١)

ومن هنا ذهب بعض الباحثين إلى أن ابيكتيتوس في رواقيته يؤكد الحرية، والعناية الإلهية ، والاتجاه العملي والنزعة الإنسانية ، فعلى الإنسان أن يختار أن تستعبده الأشياء الخارجية ، أو أن ينجو بحريته متحصناً بغرضه الحقيقي ،وهو الشيء الوحيد الذي يقع في نطاق قدرته ، والذي لا يمكن أن تنال منه الشرور الخارجية . فلا يستطيع إنسان أن يؤذي إنسانًا آخر،لأنه وحده الذى يستطيع أن يؤذى نفسه بنفسه ، ذلك لأن المبدأ الأعلى في الإنسان – وهو المبدأ الإلهي بحق – هو الإرادة الخلقية. (٢)

أن الإنسان إذا ما فهم أن أمور الحياة المادية أمرها هين ولا قيمة لها فسوف يعيش حراً بروح هادئة قانعة طيّعة .

- " وماذا يمكن لصاحب السلطان أن يفعل معي ؟! " (٣)

- سيجعلك فقيراً ...

- وما قيمة ذلك ؟

- سينفيك إلى مكان قصّي ..

- وماذا في ذلك .. ؟ أي مكان أكون فيه هو شيء حسن بالنسبة لي.

- سيقول لك قد آن الأوان لكي تموت.

---

(١) Ibid : وراجع النصوص في نهاية البحث

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، بإشراف د . زكي نجيب محمود ص ٢٢ .

(٣) راجع هذا الحوار بين ابيكتيتوس وتلميذه في " محادثات ابيكتيتوس " الكتاب الرابع ، الفصل السابع (في نشرة أوتس ص ٤٣٧ وما بعدها) .

- ماذا تعني بعبارة " أن تموت "؟

- اعني أنه آن الأوان لجانبك المادي أن يتحلل ويعود إلى العناصر التي يتكون منها.

- وهل يعني ذلك خسارة للكون ؟

- كلا على الإطلاق .

وما المرعب في ذلك إذن ؟ لا شيء ،وما الغريب أو اللامعقول فيه ؟ أهذا ما يخيف المرء من الطاغية ؟ أهذا ما يجعل سيوف الحراس طويلة وماضية ؟! دع الآخرين ينظرون إلى الأمر من هذه الزاوية ، أما أنا فقد تدبرت الأمر كله فوجدت، أن ليس لأحد عليَّ سلطان .. لقد جعلني الله حراً ، ولقد تعلمت أن أفهم أوامره ، ولم يعد في استطاعة أحد أن يجعلني عبداً بعد ذلك : " (١) هذه جوانب منيرة من فلسفة ابيكتيتوس الرواقية الأخلاقية ، التي يصفها البعض بأنها حتمية مرة وجبرية مرة أخرى ، ذلك لأن الصورة العامة للمذهب الرواقي هي أنه قيد نفسه بالافتراض القائل بأن كل الأحداث تقع بالضرورة ، مما يعني أن الإنسان لديهم لا يكون فاعلاً حراً ومختاراً بالمعنى الدقيق لذلك الذي بإمكانه أن يختار فعل هذا الفعل أو تركه متى أحب ذلك . بل يكون في اختياره مجبراً على أن يختار هذا الشيء بالذات دون غيره وفي هذه اللحظة بعينها – بفعل القوي الكبرى التي تسيّره ، إنها العلّية الشاملة التي تجعل نسبة المسئولية إلى الأشخاص عملية مستحيلة .. " (٢)

ويمكن أن نقول أن هذا النص ينطوي على مجموعة من الأخطاء أهمها ما يلي الخطأ الأول : أنه يلجأ إلى التعميم ، فيتحدث عن الرواقية بصفة عامة ، وفي هذه الحالة

---

(1) Ibid P . 438 .

(٢) د . محمود مراد " الحرية في الفلسفة اليونانية " دار الوفاء للطباعة والنشر بالاسكندرية عام ١٩٩٩ . ص ١١٣

ليس أمامه بد من إخراج ابيكتيتوس من المذهب الرواقي أو أن يعترف بأنه يلجأ إلى التعميم الخاطيء كما يقولون في المنطق .

الخطأ الثاني : أنه يعارض نصوصاً صريحة لواحد من ألمع فلاسفة الرواق يتحدث فيها عن حرية الاختيار عند الإنسان ، ويقول أنه لا سلطان لأحد عليّ ، وأنه لا يستطيع أحد أن يسلبني هذه الحرية إلى أخر تلك النصوص التي مَّرت علينا من قبل .

الخطأ الثالث : انه يتجاهل ما يقوله ابيكتيتوس أكثر من مرة من أن الفلسفة عنده لا تهتم كثيراً بدراسة الكون ولا العناصر التي يتكون منها ، ولا البحث عن العلل الأولى بل غايتها إصلاح الأخلاق كما سبق أن ذكرنا في بداية الحديث عن ابيكتيتوس :

ويقول باحث آخر : " كان الميل الديني عند ابيكتيتوس صارخاً وواضحاً .. وعلى الرغم من أنه كان على علم بالابستمولوجيا والفزيقا الرواقية – فلم يكن له هدف آخر سوى أن يحرك عقول مستمعيه نحو أفضل الأشياء : وكان ابيكتيتوس يؤمن أن البشر يكونون أفضل لو أنهم أدركوا حقيقة أن العناية الإلهية هي التي تحكم العالم .. " (١)

فهذه الآراء التي ترى أن فلسفة ابيكتيتوس تدور حول إصلاح الأخلاق . أو السمو بالمشاعر الدينية .. الخ . لابد أن توضع في الحسبان- قبل أن نتحدث عن الحتمية الكسمولوجية والضرورة الكونية التى اخذ بها أهل الرواق فقضت على حرية الإنسان عندهم حتى أصبح بلا ميزة عن بقية الموجودات الأخرى – بالنسبة لقانون القدر سوى أنه الموجود الوحيد الذي يكون مؤهلاً بفضل عقله الخاص به (وهو قبس من النار الإلهية العليا) بأن يرضى بحكم القدر – بناء على ترو منه وبصيرة فهو الوحيد الذي

---

(1) W . T . Jones : The Classical Mind CA History of western Philosophy – Harcourt , Brace World , Inc . New York , 1969 – P . 337 .

يعرف أنه يجب عليه أن يطيع القدر أما بقية الموجودات الأخرى فأنها تطيع القدر بالفطرة دون أن تعرف أنها تفعل ذلك . (١)

وفي جميع الحالات فإن الإنسان لا يستطيع أن يفعل لنفسه شيئاً سوى الاستسلام لمصيره أو الخضوع لقدره فلا حرية ولا اختيار ولا إرادة، وهي أقوال تعارض تماماً كل نصوص " ابيكتيتوس " .. التي عرضناها فيما سبق .

خامساً : تحمل وازهد (٢)

يقول هنري سدجويك " أنه بهاتين الكلمتين الخطيرتين تعتبر الفلسفة نفسها بمثابة الدواء الناجح الذي ينشده الناس . (٣) ومن هنا فإن " ابيكتيتوس يدعو الناس إلى احتمال الأذى والصبر على المصيبة وعلى جميع ما يكدر الخاطر ويقلق البال،وهو ينبهنا إلى قانون يصفه ابيكتيتوس بأنه بالغ الأهمية هو قانون الحياة وهو يقول " عش على وفاق مع الطبيعة " ولقد سبق أن ذكرنا أن فيلسوفنا لم يهتم قط بالطبيعة وهو يرى أنها لا تعنينا فكيف يعود الآن ليطالبنا بالعيش معها ؟! لا جدال أن الطبيعة المقصودة هنا مختلفة عن الطبيعة الخارجية التي تتألف من ماء وتراب ونار.. وهواء الخ. أن المقصود هو الطبيعة الإنسانية ، وليست الطبيعة الإنسانية ماء ولا هواء وإنما " عقل أساساً .

---

(١) د . محمود مراد " الحرية في الفلسفة اليونانية " دار الوفاء للطباعة والنشر بالإسكندرية عام ١٩٩٩ ، ص ١١٩ .

(٢) عند هنري –سد جويك " تحمل .. وتجنب " . ويترجمها الدكتور عثمان أمين " احتمل .. وتزهد " الفلسفة الرواقية هي ٦٤ . والمعنى واحد في جميع الحالات : عليك أن تصبر وتتجلد من ناحية . وان تنصرف عن الأمور التافهة التى لا قيمة لها – وهى كثيرة من ناحية أخرى – راجع النصوص التي ترجمناها في نهاية البحث لاسيما النص العاشر من مجمل ابيكتيتوس .

(٣) هـ . سد جويك " المجمل في تاريخ علم الأخلاق " ترجمة د . توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي الجزء الأول ، الطبعة الأولى عام ١٩٤٩ دار نشر الثقافة بالإسكندرية ، ص ١٩١ .

ومن هنا يتضح أمامنا مغزى العبارة التي كثيراً ما أسيء فهمها وهي " عش على وفاق مع الطبيعة " فمعناها عش على وفاق مع العقل .. وماذا يقول العقل ؟ وبماذا يطالبنا .. ؟ يقول بوجود طريقين في عالم الأخلاق : طريق الفضيلة وطريق الرذيلة وأن علينا أن نختار الأول ونترك الثاني ،وليس الأمر سهلاً كما يبدو : فالفلاسفة يدربوننا في المجال النظري وهو المجال الأسهل والأيسر ، ثم يرشدونا إلى المجال الأصعب . لأنك في المجال النظري لن تجد مؤثرات ولا معوقات تعوقنا عن إتباع ما تعلمناه . أما في الحياة فهناك مؤثرات كثيرة تجرنا إلى الطريق المضاد ، ولهذا ترانا نسخر ممن يقول انه يريد أن يحاول الحياة أولاً ، فليس من السهل أن نبدأ بما هو أصعب . والجانب الأصعب هو العمل أو تطبيق ما تعلمناه ، فمن السهل أن تعرف أن الصدق فضيلة والأمانة كذلك .. لكن من الصعب جداً أن تكون صادقاً وأميناً ..! (١)

يأمرنا العقل أيضاً أن نعيش أحراراً فلم يعد في استطاعة أحد أن يجعلني عبداً بعد ذلك طالما زهدتُ في الأمور المادية الصغيرة ولم أجر وراءها ، وطالما عرفت أن هناك أموراً كثيرة لا سيطرة لي عليها – ولا بأس في ذلك. استمع إلى الفيلسوف يحاور تلميذه:-

- لستَ سيداً على جسدك .

- وماذا يعنيني في ذلك؟

- لستَ سيداً على ممتلكاتك.

- حسناً .. ولماذا اهتم بذلك ؟

- لستَ سيداً على بقاءك أو رحيلك أو على النفي أو السجن.

- مرة أخرى أنا مُسلِّم بذلك كله.

---

(1) Discourses of Epictectus , Book one chapter 26 , (W . j . Oates , P 269).

- قل لسلطانك أن يجرب ،ويمد سلطانه لأقصى حد ، وسوف يجد أنني لا أخشى شيئاً ، ولا أهاب أحداً : من أمناء القصر ؟ وماذا يستطيعون أن يفعلوا ، ولماذا أخشى أعمالهم ؟ أن يمنعوني من دخول القصر .. ؟

- حسناً : إذا ما وجدوا أنني أريد دخول القصر فليمنعوني ! إن شعاري هو على الدوام :

" لا تُرد شيئاً سوى ما يريده الله " وإذا فعلتَ ذلك فمنْ ذا الذي يقف أمامك ، ويعترض طريقك ؟ منْ ذا الذي يستطيع أن يكرهك على فعل شيء لا تريده ..؟ أنك إذا تمسكت بهذا الشعار فسوف تكون حراً مثل زيوس Zeus نفسه . (١)

وفي حوار آخر مع تلميذه يقول الفيلسوف.

- أرني سيوف الحراس . أرني كم هي طويلة وماضية .

- حسنا ما الذي تفعله هذه السيوف الطويلة الماضية؟

فيجيب التلميذ : إنها تقتل.

- ما الذي تفعله الحمى؟

- تفعل الشيء نفسه.

- ما الذي تفعله قطعة الحجر إذا سقطت فوق رأسي ؟

- تفعل الشيء نفسه.

- أتريد مني ، إذن ، أن أقف مرعوباً من هذه الأشياء ، أن أبذل لها كل التوقير ، والإجلال ،والاحترام؟ وأن أسير في حياتي كما لو كنتُ عبداً لها؟! (٢)

---

(١) Ibid , Book 4 , chapter 7 , W. J . Oates P . 317 – 318. وراجع نصوص " مجمل ابيكتيتوس " في نهاية البحث .

(2) Ibid , P . 439 - 440 .

- كلا ؟ لا سمح الله.

- أنني إذا ما تعلمتُ ذات مرة أن كل مَنْ يولد لابد له أن يموت حتى لا يبقى العالم على حاله ، فلا يهم عندي ، بعد ذلك ، ما إذا كنت سأموت عن طريق الحمى ، أو بسقوط قطعة من الحجر فوق رأسي ، أو ضربة من سيف الجندي – فهذه كلها عندي سواء ، بل إذا ما قارنت بينها، وكان لي أن أختار واحدة منها لاخترت ضربة سيف الجندي .

لأنه سيؤدي نفس المهمة ، ويقوم بالعمل نفسه ، ولكن على نحو أسرع فيجعل ألمي أخف ، وأنا لهذا السبب لا أخشى ما يمكن أن يفعله بي حرس السلطان فلماذا ، إذن أقف أمامهم مذعوراً؟

بل أكثر من ذلك : لماذا ابتهج عندما تحدث إلى السلطان ، ويرحب بطريقة بشوشة ودودة ؟ ولماذا أنبيء الناس الآخرين وأنا سعيد – أنه تحدث معي؟ أهو سقراط ، أو ديوجنس ، فيكون ثناؤه عليَّ شهادة تقدير لي ، أو دليلاً على مكانتي في المجتمع ؟ هل أسعد وأعجب بشخصه لو قال لي : اذهب واحضر ليون Leon من في بيته سلاميس Salamis ؟ كلا ! سوف أقول له : " بل اذهب أنت أو ابحث عن شخص آخر ، أما أنا فلن أقوم بهذا الدور بعد الآن.

فقال له تلميذه وهو يحاوره:

- " لكنك في هذه الحالة سوف تفقد عنقك ! فأجاب الفيلسوف :

- تُرى هل الإمبراطور نفسه ، أو أنت – يا منْ تطيعه - سوف تحتفظ بعنقك إلى الأبد " ..؟!

المبدأ الأساسي عند ابيكتيتوس – وهو مبدأ نابع من العيش على وفاق مع الطبيعة أي مع العقل – هو أنه لكي تعيش حراً بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة فينبغي أن لا يسيطر عليك شيء ولا تمتلك عواطف أو نزعات ،ولا تهاب أحداً ولا تخشى كائناً

من كان ، وليكن مبدؤك " الاستغناء عن " ، " الزهد في " ، و مع تحمل الصعاب والمشاق ، والصبر على المكاره حتى لا تخضع لأحد من أصحاب الجاه والسلطان ، ولا تجري وراء هذا الشيء أو ذاك : فلا تهتم بمطالب الجسد وشهواته، ولا تتعلق بزوجة أو ولد ،ولا تتطلع إلى منصب أو جاه ولا تنظر إلى ما في يد الآخرين بل " ازهد مما في أيد الناس يحبك الناس .. " كما قال الإمام عليّ كرم الله وجه .. ثم اسأل نفسك في هذه الحالة : لماذا أخشى السلطان بعد ذلك ؟! وماذا لديه يمكن أن يمنعه عني أو يحرمني منه ؟ وقل لنفسك سيجعلني فقيراً ؟ وماذا في ذلك ؟ سيحرمني من أن أكون فى معيّته ؟ وماذا يعني ذلك بالنسبة لي ؟ سيحرمني من المنصب ؟ أنا لا أريده ! سيمنعني حراسه من دخول قصره ، ومن المثول بين يديه .. الخ – وماذا في ذلك كله إذا كان عندي ما يمكن أن نسميه " بقوة المستغني " إذا ما استغنيت عن كل هذه " المتع الدنيوية " التي يلهث الناس وراءها ويرونها رفيعة وقيّمة، وأراها أنا وضيعة ولا قيمة لها – بل على العكس سوف يزداد احترامهم لي إذا ما استغنيت عنها مصداقاً لقول الإمام عليّ رضى الله عنه : " احتج إلى مَنْ شئت ، تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ،وأحسن إلى من شئت تكن أميره.. " وكأن الامام كان يلخص فلسفة ابيكتيتوس في السلوك القويم والعامل الأخلاقي في دنيا الناس . إن علينا أن نعرف جيداً أن الحكمة هي الخير الوحيد في هذه الدنيا ، وأن انعدامها هو الشر الوحيد أيضاً ، "وأن نعرف كذلك أن الحكمة هي معرفة الخير والشر ، وكيف نهتدي إلى منهج نقرر به خواص السلوك السليم " . (١)

---

(١) هـ . سيد جويك : " المجمل في تاريخ علم الأخلاق " الجزء الأول ، ترجمة د . توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي الطبعة الأولى ، دار نشر الثقافة بالإسكندرية عام ١٩٤٩ ص ١٦١ .
وراجع أيضاً نصوص من ابيكتيتوس التي ترجمناها في نهاية البحث .

سادساً : خاتمة.

بدأنا في هذا الفصل بإبراز أهمية الحرية عند ابيكتيتوس بسبب انشغاله بموضوع الأخلاق ، والسلوك الأخلاقي ،وإهماله للطبيعة المادية مصداقاً لما يقوله " رسل " من أن الأيام كلما أمعنت في سيرها قلَّ اشتغال أصحاب المذهب بجوانب الرواقية الأخرى غير جانبها الأخلاقي ، وازدادوا حصراً لاهتمامهم بالأخلاق . وبتلك الأجزاء من اللاهوت التي تتصل بالأخلاق اتصالاً وثيقاً : " [1] ومعنى ذلك أنهم دخلوا ميدان اللاهوت نفسه من باب الأخلاق . ويقول رسل أيضاً : " لقد كانت التعاليم الرئيسية التي تمسكت بها الرواقية طوال تاريخها كله تدور حول : الجبرية الكونية والحرية الإنسانية " . [2]

والنقطة الثانية التي تعرضنا لها هى أن الله قسَّم الأشياء قسمين : قسم يخضع لسيطرتنا وقدراتنا (وهو ميدان الفعل البشري) وقسم لا سلطان لنا عليه (وهو ليس ميداناً للفعل البشري بأي معنى) – لكن هذا القسم الثاني الذي لا يخضع لسيطرتنا لا ينبغي أن يُستغل في القول بالجبرية أو الحتمية كما يريد البعض أن يفهم من قسمة الأشياء هذه بل يعني فقط أن حدود حريتنا هي القسم الثاني الخاص بالفعل البشري أو السلوك الأخلاقي . وعلى ذلك فمن الخطأ أن يقال : " وسيراً على هذا المنوال الجبري " اهتم ابيكتيتوس اهتماماً كبيراً في كتابيه " المقالات " و " المحصول " [3] بالتمييز بين الأشياء التي تكون في متناول استطاعتنا الطبيعية وبين تلك التي لا تكون كذلك . ويوصينا كثيراً بضرورة أن نقنع بما خلقه الإله لنا ، ووضعه في استطاعتنا ، وأن لا نمد بصرنا إلى تلك الأشياء التي لا تكون كذلك : " [4] .وهذا فهم غريب في الواقع لما يقوله

---

(١) ب . رسل " تاريخ الفلسفة الغربية " الجزء الأول ص ٤٠٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠١ – ٤٠٣ .

(٣) يقصد بالأولى " الأحاديث " أو " المحادثات " التي جمعها ونشرها تلميذه أريان ، وقد سبقت الإشارة إليها ، أما الكتاب الثاني فهو المجمل The manuel .

(٤) د . محمود مراد " الحرية في الفلسفة اليونانية " ص ١٢٢ .

"ابيكتيتوس" فهل لأن هذا الفيلسوف نادى بأن هناك ظواهر أو أحداثاً أو قسماً من الأشياء التي أوجدها الله تخرج عن إرادتنا ،وليس في استطاعتنا أو مقدرونا السيطرة عليها – فإنه لهذا السبب يصبح من دعاة الجبرية أو أنصار الحتمية ! وهل يعني ذلك أن أنصار الحرية لابد أن يقولوا : أن الإنسان قادر على كل شيء..؟ إن أعظم أنصار الحرية – في الفلسفة المعاصرة وهم الفلاسفة الوجوديون ، ينادون بما يسمى بالوقائعية .. Facticity (أى أن الإنسان يولد وسط وقائع Facts لا سيطرة له عليها) أو يقولون بما يسمى بالمواقف الحدِّية تارة أخرى Limit – Situations (أو مواقف لا سيطرة لي عليها) لكن لابد أن نقف هنا وقفة قصيرة لتوضيح هذه الفكرة لأهميتها الشديدة في بيان الحرية من الجبرية أو الحتمية عند ابيكتيتوس : -

هناك في حياة الإنسان وقائع لا سيطرة له عليها ولا قدرة له على تغييرها ، ومن العبث أن يحاول ذلك، كما أن هناك مواقف يمكن أن نسميها بالمواقف الحدِّية بالتعبير الحديث ، وهي التي تعبر عن حدود لقدرة الإنسان ،ولن يستطيع العلم نفسه أن يتجاوز مثل هذه المواقف،وذلك مثل عدم قدرة الإنسان على الإفلات من الموت ، فإذا كان العلم يستطيع إطالة حياة الإنسان (قد كان متوسط عمر الإنسان ٥٠ عاماً فأصبح ٦٠ ثم ٧٠ .. الخ) لكنه لا يستطيع مطلقاً أن يجعله يهرب من الموت . وهذا الموقف يجعل الإنسان يتطلع إلى تفسير الموت وما بعد الموت أي أنه يلقي به في أحضان الدين . (١) .

ومن هذه المواقف أيضاً عدم استطاعة الإنسان الإفلات من الخطأ (فلا إنسان معصوم من الخطأ) لا سيما الأخطاء الأخلاقية التي تسبب الكثير من العذاب والمعاناة . فالفعل البشري نفسه قد يؤدي بسهولة جداً إلى نتائج عكس ما يستهدفه الفعل – أعني عكس النوايا والمقاصد في محاولتنا لتحقيق أهدافنا الأخلاقية ، فإننا لا نستطيع انتهاك حرية الآخرين . صحيح أننا قد نستطيع أن نتجنب هذا الخطأ الجزئي أو ذاك

---

(١) د . إمام عبد الفتاح إمام " مدخل إلى الفلسفة " الناشر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، الطبعة السابعة عام ٢٠٠٠ ، ص ١٢٠.

. لكننا كنا نستطيع أن نعيش أو نعمل دون أن نذنب أو أن نقترف إثماً.لأنه حتى توقفنا التام عن الفعل وامتناعنا الكامل عن العمل (حتى لا نخطيء) قد يعد هو نفسه إهمالاً ، قد تكون له نتائج أشد خطورة على غيرنا من الناس .

ومن هذه المواقف الحدّية أيضاً : الموقف التاريخي الجزئي الذي يجد المرء نفسه فيه ، ففضلاً عن أن الإنسان لم يخلق نفسه ، فإنه لم يحدد الموقف أو المناخ أو العصر الذي يولد فيه : أعني الظروف التاريخية المعينة ، والمجتمع المحدد أو الثقافة المعينة والعصر الجزئي ... الخ . مع ملاحظة أنه عندما يوجد فى مثل هذا الموقف التاريخي فإنه لا يستطيع أن يهدم ما حدث قبله ، بل على العكس ، أن عليه أن يضع في اعتباره جميع النتائج التي وصلت إليها الأجيال السابقة ، ولا شك أن ذلك كله " يحد " من إرادته وهكذا يصطدم العقل البشري والإرادة البشرية بضرورات التاريخ (١) .

وهناك موقف آخر لا يستطيع الإنسان تجنبه وهو موقف الصراع : فالحياة تعني الصراع ، والنزاع ، والكفاح ، وكل كائن حي يملك إرادة الحياة ... الخ . ولا نريد أن نسترسل في عرض هذه المواقف الحدّية فهي كثيرة ، لكن ما يهمنا هو أن نبرز أن الإنسان في جميع هذه المواقف : ضرورة الموت ، ضرورة الفشل والعذاب والألم ، وضرورة الخطأ .. الخ . يقف أمامها عاجزاً فهي أشبه بجدران الغرفة التي يستطيع أن يهدمها أو يتغلب عليها، ومع ذلك كله فهو حر في المساحة المتروكة له داخل الغرفة ! لا نستطيع أن نقول أنه مجبر في جميع أفعاله طالما أن هناك ظواهر لا يستطيع أن يتحكم فيها . أو ليس في مقدرته ولا سيطرته أن يتمكن منها (٢) .

هؤلاء هم أعظم فلاسفة الحرية في القرن العشرين ،وهل يستطيع أحد أن يقول أن الفلاسفة الوجوديين جبريون أو حتميون ، لأنهم قالوا بوجود مناطق تخرج عن سيطرة الإنسان ؟! فلماذا نطلق هذه الصفة على ابيكتيتوس " فيلسوف القرن الأول –

---

(١) المرجع السابق في نفس الصفحة .
(٢) المرجع نفسه .

أو الثاني الميلادي ؟! هل لأن أهل الرواق اشتهرت عنهم " الحتمية الكسمولوجية " فلماذا لا تمتد إلى " الأفعال الإنسانية " ؟! الواقع أننا نخطيء كثيراً إذا فعلنا ذلك ، لأن الأقرب إلى الصواب أن نقول : أن ابيكتيتوس الفيلسوف الرواقي العظيم – في أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثاني الميلادي – قد طور الأفكار الرواقية عن المسئولية ، ووضعها في نظرية عن الحرية الباطنية واستقلال الإرادة ، وهما يقومان على أساس تصوره للمسئولية الأخلاقية . لقد كانت فلسفة الأخلاق ، والممارسة الأخلاقية العملية هما مركز تفكير – لكنه كان مسئولاً أيضاً عن بعض التجديدات في الأبستمولوجيا وإن كان يشدد على تخليص الحرية من العواطف والانفعالات لتحقيق هدوء البال ، ورباطة الجأش في مواجهة عالم تحكمه فكرة العناية الإلهية التي كثيراً ما تكون غامضة ومستغلقة ، وكثيراً ما كان يتعامل مع زيوس Zeus على أنه إله شخصي . كما أنه كان صاحب عقلانية صارمة (فضلاً عن أسلوب ساخر لاذع) ولقد كان لذلك كله تأثيره الدائم في الفلسفات التالية.

هذا ما يقوله براد أنوود Brad Inwood في مقاله الذي كتبه عن ابيكتيتوس في أحدث موسوعة فلسفية ظهرت في انجلترا وكندا والولايات المتحدة عام ٢٠٠٠(١) .

وبقى أن نقول كلمة سريعة عن المبدأ الذي سبق أن ذكرناه وهو " عش على وفاق مع الطبيعة " وهو مبدأ كثيراً ما أسيء فهمه ، وفسر على أنه يعني أن عليك أن تخضع للطبيعة ، ولما كانت ظواهر الطبيعة تخضع لقانون حتمي ، فإن خضوعك للطبيعة يعني بالضرورة أنك تخضع للحتمية الصارمة التي تسود هذه الظواهر.

فعلى حين أن القاعدة الرواقية الشهيرة " عش على وفاق مع الطبيعة " تعني أن يتفق سلوكك مع طبيعتك الجوهرية أي العقل .." وعلى الرغم من أن الرواقية المبكرة اعتقدت أن " الطبيعة " التي ينبغي على الإنسان اتباعها هي طبيعة الكون ، فإن

---

(١) Concise Routledge Of Encyclopedia of philosophy published by Routledge London , New York , 2000 . P . 244 (Art : Epictetus by Brad Inwood) .

الرواقية المتأخرة ابتداءً من كريسبوس مالت إلى تصور الطبيعة من وجهة نظر انثروبولوجية أكثر.. "(١).

ويبدو أن الخلط جاء أساساً من التصور الكلبي القديم للعيش وفقاً للطبيعة التي كانت تعني عندهم كل ما هو " بدائي " و" غريزي " على نحو ما كان يتمثل في سلوك وتعاليم " ديوجنس " الكلبي ، كما كان العيش وفق الطبيعة يتضمن عندهم أيضاً السخرية المستمدة من العادات والتقاليد وأعراف المجتمع المتحضرة ، وهي سخرية تجسدت في ألوان من السلوك الشاذة التي كثيراً ما تكون غير متحشمة والعيش مع الطبيعة وعلى وفاق معها في نظر الرواقية لاسيما المتأخرة بصفة خاصة ، وعند ابيكتيتوس بصفة أخص ، يعني أن على الإنسان أن يعيش على نحو سليم وفقاً للعقل أي أن يحيا حياة لا يعمل فيها شيئاً يحرمه " الكلي " الذي هو العقل السليم .

وذلك كله يعني أن الإنسان حر في تغيير مواقفه الداخلية ، أما الحتمية فهي لا تترك مجالاً للفعل الإرادي أو لا مكان لتغير المواقف كما لا تترك مجالاً للمسئولية الخلقية . والغريب أننا في كثير من الأحيان لا ندرك ما في القول بالحتمية من تناقض فإذا صحَّ وكانت الطبيعة حتمية ،وكان الإنسان مجبراً على طاعتها فما معنى قولنا " عش على وفاق مع الطبيعة " اللهم إلا إذا كان هناك خيار آخر ؟ يقول كوبلستون " ما الخير في أن نقول للإنسان : عليك بطاعة قوانين الطبيعة ، طالما أنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك في جميع الأحوال .. ؟ "(٢) إن العبارة لا يكون لها معنى إلا إذا كان في مقدور الإنسان أن يعيش على نحو آخر، أي أنه يمكن له أن يخضع أولا يخضع للطبيعة ، أن يستسلم أولا يستسلم لقوانينها ؟! أي أن الإنسان حر في نهاية الأمر ، وله الخيار في سلوكه . ومعنى ذلك كله أننا كلما أنكرنا الحرية فإنها تتسلل وتدخل من جديد من

---

(١) فردريك كوبلستون " تاريخ الفلسفة " الجزء الأول " اليونان والرومان " ترجمة إمام عبد الفتاح إمام أصدره المجلس الأعلى للثقافة العدد (٤٣٦) ص ٥٢٨ .

(٢) فريديك كوبلستون المرجع السابق ص ٥٣٠ – ٥٣١ .

الباب الخلفي ! فقد كُتب عليك أن تكون حراً ودورك أن تختار طريق الفضيلة وأن تبتعد عن طريق الرذيلة ، وعليك أن تعلم الفضائل الأساسية التي منها : الاستبصار الأخلاقي ، والشجاعة ، والعفة ، وضبط النفس ، والاعتدال ، والعدالة .. الخ (١). فإذا كان الناس يتصرفون بمقتضى قوانين الطبيعة بمعناها الواسع فإنهم مطالبون بأن يخضعوا سلوكهم للطبيعة بمعناها الضيق وهو : العقل (٢).

وتأسيسا على ذلك ففي استطاعتك أن تعيش على وفاق مع الطبيعة العقلية ، كما يمكنك أن تعيش على وفاق مع الطبيعة اللاعقلية (الشهوات والغرائز... الخ) وعليك أن تختار :

الأولى : أن تعيش سعيداً .

والثانية : أن تعيش شقياً .

والأمر متروك لك فأنت حر في فعلك !

" نصوص من أبيكتيتوس " ترجمها إلى الإنجليزية ب . إ . ماثيسون.. P . E .. Mathesson وقد نشرها " ويتني . ج . أوتس.. Whitney J . Oates في مجلد بعنوان :- " فلاسفة الرواقية والأبيقورية : النصوص المتبقية كاملة .." ونشرتها المكتبة الحديثة بنيويورك : عام ١٩٧٥ . " The Stoic and Epicurean philosophers: The Complete Extant Writings " Modern Library N . y . 1957

---

(١) نفس المرجع ص ٥٣١ .

(٢) د . توفيق الطويل " فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها " الطبعة الخامسة دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٥ .

أولاً: "الشذرات..Fragments"

الشذرة رقم (١) [١]

من أريان Arrian تلميذ ابيكتيتوس إلى شخص يناقش موضوع الجوهر. " ما الذي يهمنا إذا ما كان العالم يتألف من ذرات أو من أجزاء لا متناهية أو من نار، أو من تراب ؟ ألا يكفي أن نعرف الطبيعة الحقيقية للخير والشر ؟ والحدود التي ينبغي أن تصل إليها الإرادة ، والحدود التي ينبغي عليها أن تتجنبها ؟ وأيضاً دوافع السلوك وما يعترضه ؟ وأن نجعل من هذه المعرفة قواعد تنظم حياتنا ، وأن نستبعد تلك الأشياء التي تجاوز قدراتنا ؟ وقد يقال أن الذهن البشري لا يستطيع فهمها،أو إدراكها ، وحتى لو قال قائل إننا نستطيع أن ندركها : فما الفائدة التي نجنيها من وراء إدراكنا لها .. ؟ ألا ينبغي علينا أن نقول : إن أولئك الذين يذهبون إلى أن هذه الاشياء ضرورية للفيلسوف يرهقون أنفسهم بغير طائل ، ألن يكون الأمر المكتوب على معبد دلفي في هذه الحالة : " اعرف نفسك " لا قيمة له .. ؟

- أجاب : كلا .. !

- ماذا يكون معناه إذن.. ؟ لو أن أحداً أمر أحد المغنين في الجوقة : أن يعرف نفسه .. " ألا يكون قد أطاع الأمر إذا ما انتبه إلى زملائه في الجوقة Chorus بحيث يغني بانسجام معهم؟

- " نعم"

---

(١)يقول المترجم في تعليقاته أن معظم هذه الشذرات جاءت من كاتبين يونانيين من مقدونيا في القرن السادس الميلادي ، وبعضها من تأملات الإمبراطور ماركس أوريليوس . والشذرتين ٩ ، ١٠ من " ليالى اتيكا " في القرن الثاني الميلادي .. انظر تعليقاته ص ٤٨٧

- وقل الشيء نفسه بالنسبة للبحار والجندي. تعتقد عندئذ أن الإنسان موجود خلق ليعيش وحده أم في مجتمع ؟ .

- " في مجتمع "

- بواسطة من ؟

- بواسطة الطبيعة ؟

- أما ما هي الطبيعة ،وكيف تدير العالم . وهل هي تفعل ذلك أم لا – فهذه كلها مسائل ليس من الضروري أن نزعج أنفسنا معها .

الشذرة رقم [٢]

من إريان

الإنسان الساخط الذي لا يقنع بما يملك وبما أعطاه له النصيب فهو جاهل بالحياة جهلاً مطبقاً . أما مَنْ يتحملها بروح طيبة ويستخدمها استخداماً معقولاً فهو يستحق النظر إليه على أنه إنسان طيب .

الشذرة رقم [٣]

من نفس المصدر

كل شيء يطيع الكون ويخدمه (١) الأرض ، والبحر ، والشمس ، والنجوم الأخرى ،ونباتات الأرض وحيواناتها . وأجسامنا أيضاً يطيعه. ونعاني من المرض أو الصحة . ونمر بمرحلة الشباب والشيخوخة وبغير ذلك من تغيرات إذا ما أراد الكون. أليس من غير المعقول إذن أن ما يقع في سيطرتنا وقدرتنا، أعني حكمنا ، ألا يكون هو الشيء الوحيد الذي يكافح ضده ؟ ذلك لأن الكون هو أقوى منا وأعلى منا ، وهو يزودنا بأفضل مما نستطيع نحن أن نزود به أنفسنا ، بحيث ينظم أحداثنا مع جميع الأشياء الأخرى ،

---

(١) الكون المنظم الذي يمتد أحياناً مع خالقه " الله " من تعليقات المترجم الإنجليزي ص ٤٨٧ .

الأخرى ، وفضلاً عن ذلك فان من يسلك ضده فإنه يقف إلى جانب ما هو غير معقول ، ولا ينتج شيء عن ذلك سوى صراع عابث لا طائل تحته ، كما أنه يورطنا في أسرار وآلام.

الشذرة رقم [٤]

روفس .. Rufus : من أقوال ابيكتيتوس عن الصداقة

لقد قسّم الله الأشياء جميعاً إلى نوعين : النوع الأول هو الأشياء التي وضعها في قدرتنا وتحت سيطرتنا . والنوع الثاني هو الأشياء التي لا سيطرة لنا عليها . لقد وضع تحت سيطرتنا الأشياء النبيلة والرفيعة وهي الأشياء التي تشغل سعادته هو ، القدرة على التعامل مع الانطباعات . وهذه القدرة إذا مارسناها بشكل جيد فهي الحرية ، والسلام ، والشجاعة ، والصمود ، كما أنها أيضاً : العدالة ، والقانون ، وضبط النفس ، وجميع الفضائل . أما بقية الأشياء فقد جعلها تجاوز قدرتنا ، فينبغي علينا إذن أن نريد ما يريده الله ، وأن نؤمن بقسمته للأشياء ،وأن نتمسك بشتى السبل بما في قدرتنا وأن نبتعد عما ليس في قدرتنا من نظام العالم ،وأن نعهد إليه – بسرور- ، بأطفالنا ، ووطننا ، وجسدنا، وبأي شيء آخر يطلبه منا .

الشذرة رقم [٥]

روفس .. Rufus من أقوال ابيكتيتوس عن الصداقة

من منا لم يعجب بهذا القول من أقول ليكورجس الاسبرطي . .؟ (١) لأنه عندما تسبب أحد مواطنيه الشبان في إصابة إحدى عينيه بالعمى ، سلّم نفسه إليه طواعية لكي يعاقب ، ومع ذلك فهو لم يعاقبه لكنه علّمه وجعل منه مواطناً صالحاً. ثم أحضره

---

(١) ليكورجس Lycurgus مشرّع اسبراطي في القرن التاسع قبل الميلادولقد قام بتشريع القوانين ووضع السمات الخاصة بالمؤسسات الاسبرطية التي تنتج شخصية الجندي النبيل .

في المسرح أمام الاسبرطيين وعندما تعجبوا قال لهم :" إن هذا الرجل ، عندما سلمتموني إياه كان وقحاً عنيفاً سليط اللسان، والآن أعيده إليكم مواطناً عاقلاً حرا.."

الشذرة رقم [٦]

وتلك هي فوق كل شيء وظيفة الطبيعة.. أن تربط ربطاً وثيقاً منسجماً مع الدافع الذي ينبثق من الانطباع مما هو مناسب وبين الدافع من الانطباع مما هو مفيد

الشذرة رقم [٧]

من الشخص نفسه

من المؤكد أنه عمل من أعمال الحماقة ونقص التربية أن نظن أننا سنكون موضع احتقار مالم نتخذ كل وسيلة لأذية أول عدو نلتقي به، لأننا نقول إن المرء يكون موضع احتقار لعجزه عن إلحاق الأذى بالآخرين ، في حين أنه في الواقع يكون موضع احتقار أكثر لعجزه عن تقديم الخير للناس .

الشذرة رقم [٨]

روفس .. Rufus من إبيكتينوس: عن الصداقة

تلك كانت ، وهذه للآن ، وستكون طبيعة الكون ، فمن المستحيل أن يكون ما يحدث على خلاف ما هو عليه . ومسار الدورة والتغير هذا، لا يشترك فيه البشر الحية الأخرى على الأرض فحسب، بل الأشياء الإلهية أيضاً . نعم ! وحتى العناصر الأربعة ذاتها التي تتغير وتتحول من أعلاها إلى أسفلها فالتراب يتحول إلى ماء ، والماء يتحول إلى هواء ، وهذا الهواء يتحول أيضاً إلى أثير ، وقل مثل ذلك في العناصر التي تتغير من أعلى إلى أسفل. وإذا ما حاول الإنسان أن يتكيف مع هذه الأوضاع ،وأن يقنع نفسه بقبول ضرورة الإرادة الخيرة فسوف يعيش بطريقة عقلية ومنسجمة تماماً .

الشذرة رقم [٩]

من الشخص نفسه

فيلسوف شهير من المدرسة الرواقية .. أخرج من حقيبة أوراقه الكتاب الخامس لابيكتيتوس فيلسوف " المحادثات " التي رتبها تلميذه أريان ، وهي بغير شك تتفق مع ما كتبه زينون وكريسبوس. في هذا الكتاب الذي كتب بالطبع باللغة اليونانية ، نقرأ العبارة الآتية : -

"الانطباعات (كما يسميها الفلاسفة) التي يصطدم بها ذهن الإنسان لأول وهلة وكأنه يصطدم بشيء يصل إلى عقله ، ليست تحت سيطرته ولا رهن مشيئته (إرادته) تندفع إلى إدراك الناس بقوة من ذاتها . غير أن التصديقات التي بواسطتها يدرك الناس هذه الانطباعات هي إرادية وتعتمد على سيطرة الإنسان . ومن ثم فعندما يسمع المرء صوت الرعد المخيف أو سقوط منزل أو أنباء مفاجئة عن خطر داهم أو أمر من هذا القبيل . أو أشياء أخرى من ذلك النوع تحدث ، فحتى الرجل الحكيم لا يملك إلا أن يتأثر وينقبض قلبه ويشحب وجهه لحظات ، لا بسبب توقعه لشر قادم بل بسبب حركات سريعة وفجائية تستبق سلوك الذهن العاقل . لكن الرجل الحكيم لا يصادق على مثل هذه الانطباعات في الوقت الحاضر (أي هذه المظاهر التي ترعب ذهنه) فهو لا يستحسنها ولا يؤكدها برأيه ،وإنما يرفضها ويطردها ولا يعتقد أن فيها أي شيء مرعب . ويقولون إن هذا هو الفرق بين الرجل الحكيم والرجل الأحمق . فالرجل الأحمق يعتقد أن الانطباعات التي تصدمه لأول وهلة بقسوة وحده هي في الواقع على هذا النحو ، وكلما استمرت صادق عليها وأكدها برأيه كما لو كانت بالفعل مرعبة ، في حين أن الرجل الحكيم بعد أن يبدي الانفعال في اللون والبشرة للحظة قصيرة لا يصادق عليها ، بل يبقى الآراء التي لديه معلقة باستمرار على مثل هذه الانطباعات ، قوية وثابتة ، كما لو كانت أشياء لا تستحق في الواقع أن نخاف منها على الإطلاق ، وإنما تسبب لنا فحسب خطأ خرافياً عابثاً ".

تلك آراء وكلمات ابيكتيتوس الفيلسوف المستمدة من أحكام أهل الرواق ، ونحن نجدها في الكتاب الأول الذي ذكرناه فيما سبق ، كما اعتنقها وعبرّ عنها .

الشذرة رقم [١٠]

لقد سمعت أن فافورينوس Favorinus يقول أن ابيكتيتوس الفيلسوف قال إن معظم أولئك الذي يبدو أنهم يتفلسفون ليسوا فلاسفة إلا بالكلام وليس بالفعل . ولا يزال هناك قول أقوى من ذلك ، سجلّه أريان Arrian في الكتب التي كتبها في محاضراته ، واعتاد أن يستخدمها باستمرار. يقول أنه عندما كان يجد شخصاً بغير حياء ، أو يبدد طاقاته وينحط بالأخلاقيات ، جريئاً وقحاً ، معتداً بنفسه ، يكرس انتباها لكل شخص آخر ما عدا نفسه – عندما يشاهد رجلاً من هذا النوع يتطفل على بحوث الفلسفة ودراساتها ، مغامراً في الفزيقا ، دارساً للجدل Dialectic ، واضعاً الكثير من البحوث من هذا القبيل، فأنه كان يناشد الآلهة والناس ويلتمس منهم العون لمساعدته كما أنه كان يؤنب الرجل بهذه الكلمات : " يا رجل أين وضعتهم (أي بحوثه ودراساته) انظر وتبين وتأكد أن وعاءك نظيف ، لأنك إذا ما وضعتها؟ (١) في وعاء الخيال فقد ضاعت ، ولو أنها تحولت إلى شيء سيء فربما تحولت إلى خل ، أو بول ، أو ما هو أسوأ ". ومن المؤكد أنه لا شيء أصدق ولا أثقل وزناً من هذه الكلمات التي يؤكد فيها أعظم الفلاسفة أن المذاهب المكتوبة في الفلسفة إذا ما صُبّت في أوعية قذرة وملوثة لذهن كاذب ومنحط ، تتغير وتفسد وتتحول (إذا استخدمنا العبارة الكلبية) إلى بول أو إلي شيء أشد قذارة من ذلك. وفضلاً عن ذلك فإن أبيكتيتوس أيضاً – كما سمعنا من فافورينوس نفسه – اعتاد أن يقول إن هناك خطأين هما أشد خطورة وأكثر دناءة وقذارة من غيرهما : نقص التحمل وانعدام ضبط النفس ، فالفشل في التحمل والجلد ، واحتمال الأخطاء التي ينبغي علينا احتمالها ، أي الفشل في الإمساك عن اللذات والأشياء الأخرى التي ينبغي علينا الامتناع عنها . ومن ثم – كما يقول – فلو أن شخصاً

---

(١) أي أنه عندا انحط سلوكه الأخلاقي فإنه هبط بدراساته وبحوثه أيضاً ! . (المترجمة) .

جعل هذين الأمرين في شغاف قلبه وحرص عليهما ، وراقب نفسه وأمرها بالمحافظة عليهما فسوف يكون حراً في الأعم الأغلب من الأخطاء وسوف يعيش وسوف ينعم بأعظم حياة وسلام، والكلمتان اللتان ذكرهما هما : " تحمل .. وتجنب" .

الشذرة رقم [١٠] مكرر

عندما تكون سلامة أنفسنا والنظر إلى ذاوتنا الحقة موضع شك ، فربما كان على المرء أن يسلك أحياناً بغير عقل هذا قول لابيكتيتوس اقتبسه أريان Arrian (تلميذه) مع استحسان .

الشذرة رقم [١١]

من محادثات إريان : ثناء على الفضيلة .

لكن عندما أرسل أركيلاوس Archelaus إلى سقراط يقول أنه سيجعله غنياً ، فإنه طلب من الرسول أن يحمل معه كلمة وهي : " في أثينا في استطاعة المرء أن يشتري ثلاثة أرباع وجبة من الشعير بأوبل Obol واحدة" . (١) كما أن هناك ينابيع جارية من الماء ". فإذا كان ما أملكه لا يكفيني فأنا مكتف به ، وبالتالي فهو يكفيني. ألست ترى أن بولص Polus لم يمثل دور الملك أوديب بصوت أفضل أو بمتعة أعظم مما مثلّ دور أوديب الشحاذ الفقير في كولونا .. ؟ ماذا .. ! هل الرجل الطيب الحقيقي هو َمنْ يعرض نفسه على أنه أدنى من بولص Polus بدلاً من يؤدي أي دور أداءً حسناً مما أنعمت به عليه النعمة الإلهية ؟ ألن يجعل " أوديسيوس" بالأحرى نموذجه ذلك الذي يكون مرموقاً في أسماله البالية بدلاً من عباءته الأرجوانية الثمينة ... ؟ !

---

(١) الأوبول .. Obol عملة إغريقية قديمة تساوي سدس الدراخما (المترجمة) .

الشذرة رقم [١٢]

من أريان Arrian

هناك بعض الأشخاص الذين ينخرطون في الغضب برفق ، ويفعلون كل ما يفعله أشد الانفعاليين ، لكن بطريقة هادئة بغير انفعال . والآن ينبغي علينا أن نحترس من أخطائهم ، بوصفها أسوأ كثيراً من غضبهم الانفعالي . لأن الرجل الانفعالي سرعان ما يشبع انتقامه ،أما الروح الباردة فهي تستمر فترة طويلة كمن أصابته الحمى على نحو خفيف .

الشذرة رقم [١٣]

من ذكريات إبيكتيتوس

يقول أحدهم : " لكني أرى الرجل الطيب النبيل يفني من الجوع والبرد .. " حسناً ! ولكن ألم تر أولئك الذين ليسوا نبلاء ولا طيبين وهم يفنون من الترف ، والزهو الفارغ ، والسوقية ..؟ ! "

-" نعم ! لكن من الوضاعة أن يعولك الآخرون " .

وهل الرجل البائس هو شخص يعول نفسه ؟ " الكون هو وحده الذي يفعل ذلك . الرجل الذي يتهم العناية الإلهية لأن الأشرار لا يعاقبون بل أقوياء وأثرياء . يسلك سلوكاً غير معقول ، كما لو أنهم فقدوا عيونهم ، فيقول أنهم لم يعاقبوا ،و ذلك لأن لأظافرهم صوتاً .أما من جانبي فأنا أعتقد أن هناك فارقاً عظيماً جداً بين الفضيلة والرذيلة أكثر مما هو بين العيون والأظافر.

الشذرة رقم [١٤]

من ذكريات إبيكتيتوس

... فإذا قدمَّنا للتاريخ الفيلسوف الغضوب الشرس الذي يعتقد أن اللذة أو المتعة ليست طبيعية ، ولكنها تصاحب أشياء طبيعية ، مثل : العدالة وضبط النفس والحرية.

فلماذا ، إذن ، تحظى النفس ببهجة هادئة ، كما يقول ابيكتيتوس- في الأمور الأدنى مثل أمور البدن ، لكنها لا تنال متعة أو لذة في أمورها الطيبة التي هي الأمور الأعظم .. ؟

سوف أقول لك : لقد وهبتني الطبيعة إحساساً باحترام الذات. وأنا كثيراً ما أشعر بالخجل عندما أعتقد أنني أقول شيئاً مشيناً . وهذا الشعور هو الذي يمنعني من النظر إلى اللذة على أنها شيء طيب وعلى أنها غاية الحياة .

الشذرة رقم [١٥]

من المصدر نفسه

كانت النساء في روما تدرس جمهورية أفلاطون لأنه شرّع لجمعية الزوجات فهن ينتبهن فقط إلى كلام الرجل لا إلى عقله ، ودون أن ينتبهن إلى أنه لم يكن أول من سن زواج رجل واحد من امرأة واحدة ، ثم أراد بعد ذلك أن تكون الزوجات مشاعاً ، ثم ألغى النوع الأول من الزواج ، وأدخل مكانه نوعاً آخر. وبصفة عامة يغرم الرجال بالعثور على مبررات لتبرير أخطائهم الخاصة ، لأن الفلسفة تقول إنه لا ينبغي على المرء أن يرفع أصبعه كيفما اتفق .

الشذرة رقم [١٦]

من ذكريات إبيكتيتوس

ينبغي عليك أن تعرف أنه ليس من السهل على الإنسان أن يصل إلى حكم ما، ما لم يكن قد حدد وسمع المباديء نفسها كل يوم وطبقها طوال حياته .

الشذرة رقم [١٧]

" من إبيكتيتوس "

عندما دعينا إلى حفل شراب استمتعنا بما هو موجود أمامنا ، ولو أنك رجوت المضيف أن يأتي إليك بالسمك أو الكعك (١) لكان سلوكك شاذاً . ومع ذلك فإننا من

---

(١) أو أي ألوان أخرى من الطعام غير الموجود على المائدة ، لكان سلوكك غير لائق - وهي دعوة إلى القناعة والشكر على ما هو موجود وعدم الطمع في المزيد (المترجمة) .

داخل العالم نسأل الآلهة ونطلب منهم مالم يعطونا إياه ، وذلك على الرغم من وجود المزيد من العطايا التي منحوها لنا ..

الشذرة رقم [١٨]

الأتباع المتازون هم الذين يترفعون بأنفسهم عما يجاوز سيطرتهم ، فإذا قال أحدهم : " أنا أفضل منك لأنني أملك فيضاً من الأراضي في حين أنك تتضرع جوعاً " . وقال آخر : " أنا مستشار .. " في حين قال ثالث " أما أنا فمدير للشئون المالية .. " وقال رابع " أنا صاحب شعر مجعد ، مع أن الحصان لا يقول لحصان آخر : " أنا أفضل منك لأن عندي وفرة من العلف ، وفيض من الشعير ، ولجام من ذهب ، وسرج مرصع للعمل " . وإنما يقول له : " أنا أسرع منك . وكل مخلوق في الكون إنما يكون أفضل أو أسوأ طبقاً لما تفعله به فضيلته أو رذيلته . أيكون الإنسان إذن هو المخلوق الوحيد الذي ليس له فضيلة خاصة به بحيث لا نملك إلا أن ننظر إلى شعره، أو إلى ملابسه ، أو إلى أسلافه؟".

الشذرة رقم [١٩]

الناس المرضى يغضبون من أطبائهم عندما لا يقدم لهم الطبيب أية نصيحة، ويعتقدون أنه تخلى عنهم ، أو يئس منهم . فلم لا يتبنى المرء نفس الموقف مع الفيلسوف، ويستنتج أنه قطع الأمل في حكمة المرء، إذا لم يقل له شيئاً ذا نفع .. ؟ !

الشذرة رقم [٢٠]

من إبيكتيتوس

أولئك الذين حالة أجسامهم جيدة يستطيعون تحمل الحرارة والبرودة ، ومن ثم فإن أولئك الذين حالة نفوسهم جيدة في استطاعتهم تحمل الغضب ، والألم ، والتهلل ، والاغتباط .. وغير ذلك من انفعالات .

الشذرة [٢١]

من نفس المصدر

من الصواب أن نمتدح أجريبنوس ... Agrippinus لهذا السبب ! وهو أنه أظهر أنه رجل من طراز رفيع (صاحب قيمة عليا) وأنه لم يثني على نفسه أبداً ، بل يحمر وجهه خجلاً عندما يمتدحه شخص آخر ، كما أن شخصيته من النوع الذي إذا نزلت عليه كارثة كتب ثناء لها . فلو أنه أصيب بالحمى امتدح الحمى ، ولو ساءت سمعته أثنى على سوء السمعة . ولو كان مصيره النفي خارج البلاد ، أثنى على النفي . وذات يوم بينما كان على وشك تناول وجبة الإفطار ، قاطعه رسول ليقول له أن " نيرون" أمر بنفيه فقال : " حسنا ، إذن سوف نتناول طعام الإفطار في أريشيا .. Aricia ... " ! .

الشذرة رقم [٢٢]

من أجريبنوس .. Agrippinus

عندما كان " أجريبنوس " حاكماً حاول أن يقنع أولئك الذين حكم عليهم بالإعدام أن من الأصلح لهم أن يعدموا ، فقال لهم: " إن ذلك ليس من منظور أنكم أعداء أو أنكم لصوص مما جعلني أحكم عليكم بالإعدام ، بل من منظور الحراس والأقرباء ، تماماً كما أن الطبيب يشجع الرجل الذي سيجري له عملية ويقنعه أن يخضع له جسده" .

الشذرة رقم [٢٣]

الطبيعة رائعة ومدهشة وهي مغرمة بمخلوقاتها كما يقول اكسانوفون . وعلى أية حال فنحن نحب الجسد ونميل إليه أقل الأشياء جميعاً قبولاً وأكثرها فساداً ووضاعة ! فلو أنه كان علينا رعاية جسد جارنا لمدة عشرة أيام فقط ما تحملناه . تخيل ما الذي يحتاج إليه لكي يستيقظ في الصباح : إن عليك أن تنظف أسنان شخص آخر ، ثم تقوم ببعض الأعمال الضرورية التي يحتاج إليها . حقاً رائع ومدهش ذلك الذي نحبه

ونقوم من أجله بكل هذه الأعمال الوضيعة يوماً بعد يوم . أنا أملأ هذه الحقيبة ، ثم أعود فأفرغها ، ما الذي يمكن أن يكون أشد من ذلك مدعاة للضجر والملل .. ؟ لكني مضطر لخدمة الله ، هذا هو السبب الذي يجعلني أقيم هنا وأحتمل وأصر على غسيل هذا الجسد البائس الذي هو جسدي، وأقدم له الطعام والمأوى، وعندما كنت شاباً كانت له مطالب أخرى أيضاً ومع ذلك تحملتها. لماذا إذن عندما تقوم الطبيعة التي وهبتك هذا الجسد باسترداده ، لا تتحمل ذلك ولا تطيقه ؟ ويقول : " أنا أحبه حسنا لكن أليست هي الطبيعة كما ذكرت الآن هي التي وهبتك هذا الحب له ؟ ومع ذلك فالطبيعة تقول أيضاً " دعه يذهب الآن ، ولا تنزعج بعد ذلك ... ! " .

الشذرة رقم [٢٤]

من نفس المؤلف

لو أن الإنسان مات شاباً فإنه يتهم الآلهة . وقد يتهم الرجل العجوز الآلهة أيضاً لأنه يدخل في متاعب كلما تقدم به الزمن ، ومع ذلك فعندما يقترب منه الموت يتمنى أن يعيش ، ويرسل إلى طبيبه يرجوه أن لا يدخر وسعاً ولا جهداً، ويقول يا لروعة البشر وما أعجبهم فهم يعيشون رغم إرادتهم ويموتون رغم إرادتهم .

الشذرة رقم [٢٥]

عندما تهاجم إنساناً ما وتهدده مظهراً له القوة عليك أن تتذكر أن تحذر نفسك أنك لست وحشاً برياً ، وأنك لن تفعل شيئاً متوحشاً ، وأنك سوف تعيش حياتك دون أن تندم أو تتوب أو أن تحاسب نفسك .

الشذرة رقم [٢٦]

أنت نفس صغيرة تحمل بدنا ، كما اعتاد ابيكتيتوس أن يقول .

الشذرة رقم [٢٧]

قال ابيكتيتوس إنه ينبغي علينا أن نكتشف فن الرضا والقبول وإن نولي الانتباه والحرص لمجال الإرادة . فلابد أن يكون هناك تحفظ في دوافعنا وأن تكون

اجتماعية وأن تنال ما تستحقه : ولابد لنا أن نمنع الإرادة تماماً أن تنال ، وأن لا تحاول أن تتجنب أي شيء من الأشياء التي لا تقع تحت سيطرتنا ..

الشذرة رقم [٢٨]

يقول ليست مسألة عادية تلك التي تكون موضوع نزاع ،وإنما هي وسط بين العقل والجنون .

الشذرة رقم [٢٩]

باستمرار لا تفكر في شيء قدر تفكيرك فيما هو آمن . والصمت آمن من الكلام ، وامتنع عن قول ما يخلو من المعنى ويفتح الطريق أمام اللوم والتأنيب .

الشذرة رقم [٣٠]

ينبغي علينا أن لا نمسك السفينة بهلب واحد صغير ، ولا نعلق حياتنا على أمل واحد .

الشذرة رقم [٣١]

ينبغي علينا أن لا نمد آمالنا إلى آفاق بعيدة أبعد كثيراً من خطواتنا .

الشذرة رقم [٣٢]

إننا بحاجة ماسة لعلاج الروح أكثر من علاج البدن لأن الموت أفضل من الحياة.

الشذرة رقم [٣٣]

أندر المتع تعطي أعظم بهجة .

الشذرة رقم [٣٤]

إذا كان ينبغي على الإنسان أن يتجاوز الشيء الوضيع فسوف تنقلب أكثر الأشياء سروراً ومتعة إلى كآبة تامة .

الشذرة رقم [٣٥]

لا يكون الإنسان حراً ، ذلك الذي لا يكون سيد نفسه .

الشذرة رقم [٣٦]

الحقيقة هي شيء أزلي وخالد ، وهي لا تعطينا جمالاً يذبل مع الزمن، كلا ! ، ولا هي تأخذ الكلام الموثوق منه الذي يبنى على العدالة ، وإنما هي تؤكد الأشياء العادلة، والقانونية ، كما تميزّ عنها الأشياء الظالمة ، مبينة زيفها .

ثانياً : مجمل إبيكتيتوس نصوص من المجمل لإبيكتيتوس.

The Manual oF Epictetus ed . by whitney J. Oates P . 468

وانظر أيضاً : نصوص مختارة من الرواقيين في الترجمة الفرنسية .

- Les Stoiciens : Textes Choisis Par : Jean Brun Presses Universitaires De France Paris , 1957 , P . 114

مجمل إبيكتيتوس (١)

[١]

من بين جميع الأشياء الموجودة في العالم ، هناك بعض الأشياء تخضع لسيطرتنا وهناك بعضها الآخر لا يخضع لسيطرتنا ، فمن الأشياء التي تخضع لسيطرتنا هناك الفكر ، والدوافع ، وما نريد أن نصل إليه ، وما نريد أن نتجنبه ، باختصار كل ما يخضع لفعلنا . أما الأشياء التي لا تخضع لسيطرتنا فهي تشمل : الجسم ، والملكية ، والسمعة ، والمركز أو المنصب ، وباختصار كل مالا يكون من فعلنا . والأشياء التي تخضع لسيطرتنا هي من حيث الطبيعة حرة طليقة غير مقيدة أما الأشياء التي لا تخضع لسيطرتنا فهي ضعيفة خانعة ، تخضع للعوائق ، وتعتمد على غيرها . تذكر إذن أنك إذا ما تخيلت أن

---

(١) هذا المجمل لمباديء ابيكتيتوس هو على الأرجح من تصنيف تلميذه أريان Arrian ، وهو يحتوي على ملخص رائع لفكر أستاذه – من تعليقات المترجم الإنجليزي ص ٤٨٧ (المترجمة).

ما هو خانع بالطبيعة هو نفسه حر، وأن ما هو بالطبيعة ملك الآخر هو ملكك الخاص فسوف تكون معاقاً وسوف تتفجع وتنتحب ، وسوف تضطرب وترتبك وسوف تلوم الآلهة والناس ، ولكنك لو اعتقدت أن ممتلكاتك هي وحدها التي تنتمي إليك، وأن ممتلكات الآخر تنتمي إليه وحده ، فلن يضع أحد أمامك العراقيل . ولن يرغمك أحد على شيء . ولن تلوم أحداً ولن تتهم أحداً ، ولن تفعل شيئاً ضد رغبتك وضد إرادتك ولن يضرك أحد ، ولن يكون لك أعداء ، لأنه لن يمسك ضر.

وعليك أن تتذكر وأنت تتطلع إلى هذه الأمور العليا أن بلوغها يحتاج إلى جهد أكثر من الجهد العادي . فعليك أن تتخلى عن بعض الأشياء تماماً ، وأن ترجيء بعضها الآخر بعض الوقت . وإذا كان لديك المنصب والثروة فربما فشلت في الوصول إلى هذه الأمور العليا ، لأن رغبتك سوف تتركز على الأمور السابقة، ومن المؤكد أنك سوف تفشل في بلوغ تلك الأشياء التي تجلب ، هي وحدها ، السعادة والحرية .

اجعل همك ، إذن ، مواجهة كل انطباع عنيف أو فظ بهذه الكلمات . " أنت لست سوى انطباع ولست أبداً على النحو الذي تبدو عليه .. " ثم اختبره بتلك القواعد التي تملكها قبل كل شيء وبهذا الاختبار الذي هو سيد الاختبارات جميعاً : " [1] أهو يهتم بالأمور التي في نطاق قدرتنا أم بالأمور التي لا تقع في مجال قدرتنا ..؟ " وإذا كان يهتم بالأمور التي لا تقع في نطاق قدرتنا ، فكن مستعداً بالجواب : إنه لا يعني شيئاً بالنسبة لك .

[٢]

تذكر أن الغاية من رغباتك أي تحقيق ما تريد ، وأن رغبتك في تجنب الوعود تفلت مما تريد أن تتجنبه . وأن من يفشل في الحصول على ما يريد هو إنسان تعيس

---

(١) في الترجمة الفرنسية Une Imagination " أنت لست سوى خيال ولست أبداً كما تظهر .. " ص١١٥ من كتاب نصوص مختارة السالفة الذكر Textes Choisis بقلم Jean Brun مطابع الجامعات باريس ١٩٥٧ (المترجمة) .

الحظ . وأن من لم يهرب مما يريد أن يتجنبه فهو إنسان بائس ، وإذن لو أنك حاولت أن تتجنب ما هو غير طبيعي فحسب الذي يدخل في نطاق سيطرتك فإنك سوف تهرب من كل ما تتجنبه ، لكنك إذا ما حاولت أن تتجنب المرض أو الموت ، أو الفقر ، فسوف تكون إنساناً بائساً .

ومن ثم دع إرادتك تتجنب ولا يكون لها أدنى اهتمام بما لا يقع في نطاق قدرة الإنسان، ووجهها فقط إلى الأشياء التي تقع في نطاق قدرة الإنسان والتي هي مضادة للطبيعة على نحو مباشر. لكن لابد لك في اللحظة الراهنة أن تقوم بإزالة رغباتك تماماً. لأنه لو كانت رغباتك أو إرادتك من النوع الذي يرغب في شيء لا يقع في نطاق قدرة الإنسان ، فلا بد أن تصبح سيء الحظ في حين لا شيء من الأمور التي تقع في نطاق قدرة الإنسان فلن تكون في وضع يسمح لك بمعرفة أيها من الأفضل أن ترغب فيه أو يكون في متناولك الآن .. إن الدافع إلى الفعل ، أو عدم الفعل – هذا هو ما يهمك – ومع ذلك فإن عليك أن تمارسه برفق. وبغير عناء ولا عجلة .

[٣]

عندما يكون أمامك شيء من أضأل الأشياء فصاعداً ، جذاب أو نافع ومفيد أو موضوع حب ، فتذكر دائماً أن تقول لنفسك : " ما هي طبيعته ؟ " [١] فلو كنت مغرماً بقدر أو إبريق ، فقل لنفسك إنني مغرم بقدر أو إبريق ، عندئذ لن تنزعج إذا ما انكسر. ولو أنك قبلت طفلك أو زوجتك فقل لنفسك : إنك إنما تقبل موجوداً بشرياً لأنك عندئذ لن تنزعج إذا ما داهمه الموت .

[٤]

وإذا كنت على وشك أن تقبض بيدك على شيء ما ، فذكر نفسك أي نوع من الأشياء هو ، فإذا ما كنت على وشك أن تستحم فضع في ذهنك ما يحدث في الحمام –

---

(١) في الترجمة الفرنسية " أهو حقيقي ؟ " ص ١١٦ (المترجمة) .

ينصب الماء على البعض ، بينما يبقى البعض الآخر يشق طريقه مزاحماً ، والبعض الثالث يسب ويشتم ، والبعض الرابع يسرق . وسوف تشرع في الاستحمام بأمان أكثر لو أنك قلت لنفسك في الحال " أنا أريد أنا أستحم ، كما أريد أن تبقى إرادتي على انسجام مع الطبيعة " وهكذا تفعل في كل عمل تقوم به. إذ بهذه الطريقة لو أن شيئاً تحول أمامك إلى عائق في استحمامك ، فسوف تكون جاهزاً لأن تقول : " إنني لم أرد أن أستحم فحسب ، بل أن أبقي إرادتي في انسجام مع الطبيعة .. ولن أبقيها كذلك لو أنني استشط غضباً مما يحدث .. " .

[٥]

ليست الأحداث هي التي تزعج الناس بل أحكامهم على هذه الأحداث ؛ فالموت، مثلاً ، ليس شيئاً مرعباً ، وإلا لاعتقد سقراط أنه كذلك . كلا ! إن الشيء الوحيد المرعب من الموت هو رأي الناس فيه وقولهم أنه مرعب .(١) ومن ثم فعندما نعاق أو ننزعج أو نكتئب ، فينبغي علينا أن لا نلقي اللوم أبداً على الآخرين ، بل على أنفسنا ، أعني على أحكامنا الخاصة. فاتهام الآخرين بأنهم السبب في سوء حظي أو تعاستي هو علامة على نقص في التربية . أما اتهام الإنسان لنفسه فهو يدل على أن التربية قد بدأت . أما عدم اتهام الإنسان لنفسه ، أو للآخرين ، فإنه يدل على أن تربية المرء قد اكتملت .

[٦]

لا تزهو ولا تتفاخر بميزة ليست لك . فلو أن حصانا قال في فخر " أنا جميل " فربما تحملناه . لكنك عندما تقول في زهو " أنا حصان جميل " فإن عليك أن تعلم أن الحصان الجميل هو موضع فخرك . فعليك أن تسأل نفسك ما الذي يمكن أن تفاخر به من صفاتك ؟ أو الجواب هو : الطريقة التي تتعامل بها مع انطباعاتك ، وعلى ذلك فعندما تتعامل مع انطباعاتك على وفاق مع الطبيعة ، عندئذ يمكن أن تفخر بذلك حقاً. ذلك لأن فخرك في هذه الحالة سوف يكون بسبب خاصية حسنة من خصالك .

---

(١) إن الموت شر La Mort est un Mal أو قولهم ها هو الشر Voila le Mal .. الخ ص١١٧ .

[٧]

إذا ما كنت في رحلة بحرية ورست سفينتك في الميناء ، ونزلت تبحث عن ماء عذب ، وربما حملت معك بعض الرخويات أو الفطريات ، لكن لابد أن تظل عينك مركزة على سفينتك بحيث تظل تنظر إليها باستمرار لترى ما إذا كان عامل الدفة ينادي عليك ، فلو كان ينادي ، فإن عليك أن تترك كل شيء ، أو أن تربط على ظهر السفينة ، وساقيك مقيدتين مثل الخروف ، ومثل ذلك هي الحياة . إذا كانت لديك زوجة عزيزة، أو رزقت بطفل فهما أشبه بالفطريات أو الرخويات فهما مقيدان جداً بطريقتيهما الخاصة ؛ فقط عندما ينادي عامل الدفة فإن عليك أن تستدير عائداً إلى السفينة تاركاً كل شيء آخر وأن لا تنظر خلفك . وإذا كنت شيخاً مسناً فلا تبتعد أبداً عن السفينة حتى إذا دعيت ، فلا يصعب عليك الظهور.

[٨]

لا تطلب أبداً أن تقع الأحداث وفقاً لمشيئتك ، وإنما عليك أن تريد لهذه الأحداث أن تقع كما وقعت ، عندئذ سوف تنعم بالسلام .

[٩]

المرض عقبة أمام البدن ، لكنه ليس كذلك بالنسبة للإرادة ، ما لم توافق الإرادة . والعرج عائق أمام الساق لكنه ليس كذلك أمام الإرادة ، قل ذلك لنفسك في كل حادثة تقع ، وسوف تجد أنه على الرغم من أنها عقبات تعوق شيئاً آخر ، فإنها لن تعوقك أنت

[١٠]

عندما يحدث لك شيء ما، تذكر دائماً أن تعود إلى نفسك وان تسأل نفسك ما هي الملكة التي لديك والتي تستطيع أن تتعامل مع ما حدث ؛ فلو أنك شاهدت غلاماً جميلاً أو امرأة جميلة ، فسوف تجد أن " ضبط النفس" هي الملكة التي تمارس في هذه

الحالة . ولو ألمَّ بك مكروه ، سوف تجد أن المطلوب هو " الجلد والتحمل " . ولو كان ما صادفك هو المجون والبذاءة فإن المطلوب هو الصبر، ولو أنك دربت نفسك على هذه العادة فلن تذهب بك انطباعاتك بعيداً .

[١١]

لا تقل أبداً عن شيء ما إنك فقدته ، بل قل : " إنني أعدته ". هل مات طفلك ؟ لقد عاد إلى مصدره ، هل ماتت زوجتك ؟ لقد عادت إلى المنبع . هل أُخذت منك ممتلكاتك ؟ ألم تسترد هذه أيضاً .. ؟ بل تقول.. " مَنْ أخذها مني وغد شرير " وماذا يعنيك خلال مَنْ استردها العاطي ؟ طالما أنه أعطاك إياها ، فعليك أن تراعيها ، لكن ليس على أنها ملكك ، بل عاملها كما يتعامل عابر السبيل مع نُزل المسافرين .

[١٢]

لو أردت أن تحرز تقدماً فإن عليك أن تتخلى عن استدلالات من هذا القبيل " لو أنني أهملت شئوني فلن يكون عندي ما أعيش منه " . "إذا لم أعاقب ابني فسوف يكون شريراً " .

إذ من الأفضل أن أموت جوعاً حتى أنك تتحرر من الألم ، وتتحرر من الخوف ، عن أن تعيش في وفرة مضطرب العقل . ومن الأفضل لابنك أن يكون شريراً عن أن تكون بائساً . ولذلك عليك أن تبدأ بالأشياء الصغيرة . هل نقطة الزيت عندك تسكب ؟ هل سُرقت جرعة النبيذ الخاصة بك .. ؟ قل لنفسك " ذلك هو الثمن الذي أدفعه لكي أتحرر من الانفعالات الطاغية . ذلك هو ثمن الذهن الهادىء . " لا شيء يؤدي بلا ثمن . عندما تنادي "غلامك – العبد " ، فكر في أنه ربما لم يستطع سماعك . ولو سمعك فربما لم يستطع أن يحقق ما طلبت . لكن لم يكن متاحاً أو الأمر بيده ليحقق لك صفاء النفس .

[١٣]

لو أنك أردت أن تحرز تقدماً ، فلا بد أن تكون قانعاً وراضياً بالأشياء الخارجية بحيث تبدو ساذجاً وأحمق . لا تطلب من الناس أن يظنوا أنك تعرف شيئاً، ولو اعتقد

أحد أنك شخص ما فلابد أن ترتاب في نفسك لأنك تعرف أنه ليس من السهل أن تجعل إرادتك على وفاق مع الطبيعة ، وأن تحافظ في الوقت ذاته على الأشياء الخارجية . فلو انك راعيت واحداً فلابد لك أن تهمل الآخر .

(١٤)

من السخف أن تريد لاطفالك ولزوجتك ولأصدقائك أن يعيشوا إلى الأبد ، لأن ذلك يعني أنك تريد ما لا يقع في قدرتك ولا تحت سيطرتك أن يكون في قدرتك وتحت سيطرتك . وقل مثل ذلك إذا ما أردت من خادمك أن لا يقع في أخطاء. فأنت في هذه الحالة أحمق ، لأنك تريد من الرذيلة أن لا تكون رذيلة بل شيئاً مختلفاً . لكن هل تريد لرغباتك ولإرادتك عدم الإحباط ؟ في استطاعتك أن تفعل ذلك : لا ترغب إلا فيما يعتمد عليك وحدك .

جرب نفسك إذن فيما يقع في مجال قدرتك نجد أن سيد البشر جميعاً أو الرجل الحقيقي هو الرجل الذي له سلطان على رغباته ، أو الذي لا يرغب في شيء على الإطلاق ، الذي يحقق رغبة ويتخلى عن الأخرى . فمن يريد أن يكون حراً عليه أن لا يرغب في شيء ،أو يتجنب كل شيء يعتمد على الآخرين وإلا سوف تصبح بالضرورة عبداً .

[١٥]

تذكر أنك لابد أن تسلك في الحياة على نحو ما تسلك لو كنت في مأدبة بحيث تنتظر حتى يأتيك الطبق إلى مكانك ، عندئذ عليك أن تمد يدك وتتناوله بأدب ؛ فإذا مرّ عليك فلا تستوقفه ، وإذا لم يصلك فلا تكن وقحاً وتذهب لتحضره ، بل عليك أن تنتظر حتى يأتي دورك . واسلك على هذا النحو مع أطفالك ، وزوجتك ، ومنصبك ، وثروتك، وذات يوم سوف تكون جديراً بأن تدعى لتناول الطعام في مأدبة مع الآلهة . لكنهم لو كانوا قد جلسوا قبلك ، وأنت لم تتناول مما أخذ منه كل فرد ، فعليك أن ترفضها

وتحتقرها عندئذ فإنك لن تشارك موائد الآلهة فحسب ، لكنك سوف تشارك في قوانينهم وقواعدهم ، وعندما فعل ذلك " ديوجنس " وهيراقليطس ورجال مثلهم . عندئذ قيل عنهم أنهم آلهيون واستحقوا هذا اللقب .